الدكتور عبد القادر محمد الحسين

إمام أهل الحق
أبو الحسن الأشعري



المشرق للكتاب

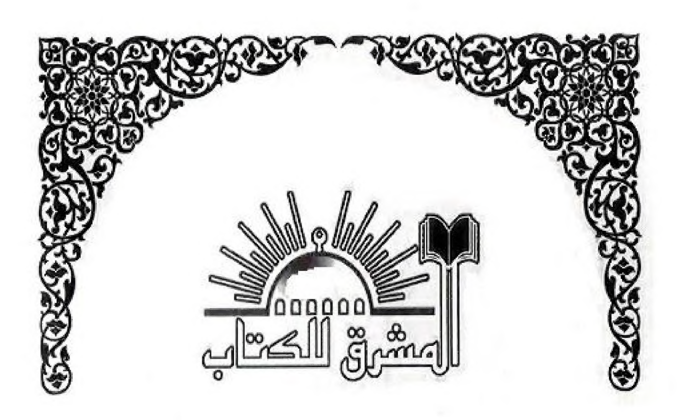
إمام أهل الحق

أبو الحسن الأشعري

تأليف

الدكتور عبد القادر محمد الحسين

المشرق للكتاب





الطبعة الأولى

١٤٣١هـ-٢٠١٠م

المشرق للكتاب

دمشق - حلبوني - جادة الربيعي أول

تلفاكس: ٢٢٤٩١٩٨ - ٠٠٩٦٣١١

موبايل: ٦٦٩٥٩٥ ٩٤٤ - ٠٠٩٦٣

E-mail : mashrekb@maktoob.com



مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وارض اللهم عن العلماء العاملين والأئمة المجتهدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وألحقنا بهم على التقوى إنك يا مولانا سميع قريب مجيب..

أما بعد.

فقد كثر السؤال اليوم من قبل المثقفين من أهل الإسلام عن الإمام العظيم؛ شيخ أهل السنة وإمام أهل الحق الشيخ المجدد أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه وعن أتباعه الأشعرية، من هؤلاء الناس؟ وما طريقتهم؟ ولماذا استهوت هذه الطريقة السواد الأعظم من علماء الإسلام؟.

كل هذه التساؤلات البريئة توجب على أهل العلم الرد وبيان حقائق التاريخ وسير عظماء الأمة؛ حتى يكونوا قدوة لكل طالب علم غيور على أمته، حريص على تفعيل علوم الإسلام من أجل عودة الأمة إلى تليد مجدها.

هذا بالإضافة إلى أن أهل الحق تعرضوا لهجمات عنيفة روّجها بعض جهلة هذا العصر من أهل الأهواء والبدع، في زمان كثر فيه الجهل وأسند أمر العلم إلى غير أهله في كثير من بلاد المسلمين.

وقد نالت تلك الهجمات رئيس أهل السنة والجماعة، محاولين بذلك تشويه سمعة أكابر علماء الإسلام في شتى المجالات، زعماً بأن الأشعري أتى بدعاً من القول في أسماء الله تعالى وصفاته، ولما كانت هذه الدعوى غاية في السماجة تراجع عنها كثير من هؤلاء تقيّة وصاروا يروّجون أن الأشعري كان من أئمة السلف ولكن أصحابه ـ وهم الكثرة الساحقة من أهل العلم ـ لم يكونوا على هديه وطريقته، وكأن خصوم الأشعرية أعرف بإمامهم منهم؛ زعماً لعمر أخيك ليس بمزعم!

وأكثر ما راعني أن أجد هؤلاء المساكين المنتسبين للإسلام يتفقون ـ عن غير قصد من كثير منهم ـ في الهجمة على الأشعرية مع غلاة العلمانيين الطاعنين في الإسلام في هذا العصر المتربصين بأهله الدوائر، ويرمون عن وتر واحدة!

* * *

ومن طرائف الأمور أني التقيت ببعض الشباب في بعض البلاد العربية قبل عدة سنوات فقال لي: حُذِّرت من الأشعرية أشد الحذر؛ حتى كرهتهم وظننت أنهم من الفرق الضالة المارقة عن الإسلام، إلى أن عرفت أنهم السواد الأعظم من علماء الإسلام! [(١)]

* * *

ولطالما ارتقبت وتمنيت أن يقوم بتجلية هذا الحق غيري من ذوي الأهلية، ولكني فوجئت أن بعضهم ـ وقد كنت أرجو من مثله أن يقوم بهذه المهمة ـ بدل أن يتصدى لها يعذلني ويصدني ويهمس في أذني أن لا أتكلم بهذه الأشياء مراعاة لجانب بعض الناس في هذا الزمان، في زمان كثرت فيه المجاملات، ولاسيما في بلادنا بلاد

---

(١) كان هذا قبل عدة سنوات، أما الآن وقد انتشرت الفضائيات الغوغائية، التي تدعو جهاراً نهاراً إلى التجسيم للباري جل وعز وتسمي هذا المذهب الكاسد الفاسد: عقيدة السلف حاشاهم! أقول بعد انتشار هذه الفضائيات المسمومة: قد وصل هذا البلاء إلى بلاد الشام التي كانت ولا تزال المعقل الأهم لأهل السنة والجماعة والمحج العلمي الذي يقصده طلاب العلم من أقطار الأرض ميممين نحو المنهج الوسط المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط في فهم الدين، وقد التقيت بثلة من المثقفين الجامعيين قبل أسابيع من كتابة هذه الأسطر فسئلت باستغراب: من الأشعرية الذين يُشتمون صباح مساء في القنوات الفلانية؟ مما يؤكد الوجوب على أهل الذكر أن يتصدوا لبيان الحق ودمغ الباطل به.

الشام صانها الله تعالى ورعاها من كل مكروه،وأوحى إليّ ذلك العاذل أني ربما أحتاج إليهم في يوم من الأيام،فسقط ذلك الناصح من عيني وعزمت على إخراج هذا الكتاب مهما كلف الثمن؛ خاصة بعد إلحاح كثير من طلاب العلم من شتى أقطار الأرض على هذا،وقياماً بحق هذا العلم توجهت إلى الله العلي الكبير أن يمدني بإتمام هذا العمل راجياً من الله الإخلاص لوجهه الكريم،وأن ينفع بهذا الكتاب كل من قرأه أو اشتراه أو أهداه.

وقد أفدت كثيراً من كتاب: "تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري" للعلامة المحدث المؤرخ ابن عساكر الدمشقي ﷺ، أقول فيه ما قال العلامة ابن مالك ﷺ في سلفه:

وهو بسبق حائز تفضيلا

مستوجب ثنائي الجميلا

وليعذرني القارئ المتخصص أني في كثير من الأحيان ـ وخاصة في نقل الأقوال من المصادر القديمة ـ لم أعز قصداً حتى لا أطيل على القارئ؛ لأن هذا ليس من مقصود هذه الرسالة، وأيضاً لشيوع بعض هذه النقول، ومالم يكن شائعاً منها فالوصول إليه سهل ميسور بعد شيوع استعمال الحاسب الآلي.

❋ ❋ ❋

وها أنا أدلي بما لدي في هذا الباب متمثلاً قول القائل:

أسير خلف ركاب النجب ذا عرج

مؤملاً جبر ما لاقيت من عوجِ

فإن لحقت بهم من بعد ما درجوا

فكم لرب السما في ذاك من فرجِ

و إن ضللت بتيه الأرض منقطعاً

فما على عرِج في ذاك من حرجِ

عبد القادر بن محمد الحسين

ليلة السبت ٧محرم ١٤٣٠ للهجرة النبوية في دمشق[1]

❀ ❀ ❀

---

(١) هذا مكان وزمان إتمام المقدمة، أما أصل الكتاب فقد تم بفضل الله تعالى في مدينة الميادين صيف١٤٢٧للهجرة.

تمهيد

روى الإمام البيهقي رحمه الله عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين).[1]

فالإسلام دين الله الحق الذي ارتضاه للعالمين؛ جعل الله فيه قوة دفع داخلية من العلماء العدول الذين لا تنثني عزائمهم؛ عرفوا حقيقة ما يطلبون فهانت عليهم مشاق الطريق، فنصر بهم الله الدين وأعز بهم أهله.

ولا يخفى على أحد ممن طالع العلوم الإسلامية أن شيخ أهل السنة الإمام الجليل أبا الحسن الأشعري رضي الله عنه من أهم الرجال الذين عرفتهم الساحة العلمية والفكرية الإسلامية، ولا تزال له آثار حية في شتى علوم الإسلام.

---

(١) أخرجه البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، كتاب جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز، باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول: كفوا عن حديثه لأنه يغلط أو يحدث بما لم يسمع، أو أنه لا يبصر الفتيا، ١٠/٢٠٩، هذا الحديث في إسناده مقال ولكن عمل به وارتضاه طائفة من أهل العلم.

فأصحاب الأشعري لهم قيادة الساحة العلمية والفكرية الإسلامية منذ قرون، وعقيدة الأشعرية هي عقيدة السواد الأعظم من أمة سيدنا محمد ﷺ وما كانت هذه الأمة المعصومة بجملتها لتقبل الخطأ أو لتجتمع عليه.

علماء العقيدة والكلام من أهل السنة معظمهم من أتباع الأشعري،والمفسرون كذلك على طريقته..شراح السنة وعلماء الحديث كذلك،فضلاً عن الأصوليين وعلماء اللغة والنحو، وأما الصالحون وأهل السلوك فحدث ولا حرج...

فمن هذا الأشعري الذي ملأ أتباعه طباق الأرض علماً؟وما هي طريقته التي جذبت هذه الأمة المعصومة؟!

وإذا ما تحدثنا عن مفسر من المفسرين فإننا مع الأشعري أمام مدرسة عظيمة في تفسير القرآن، بل وفي تفسير السنة النبوية وسائر النصوص،تركت تلك المدرسة آثاراً واضحة عظيمة في التراث الإسلامي العظيم..

هذا ما نحاول أن نسلط الضوء عليه، لنستفيد أولاً وليستفيد إخواننا طلاب العلم من هذه الشجرة الراسخة،التي أصلها ثابت وفرعها في السماء..

❀ ❀ ❀

اسمه ونسبه

اسمه: علي بن إسماعيل بن أبي بشر؛ واسمه: إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى، وكنيته أبو الحسن الأشعري.

إذن فنسبه ينتهي إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ﷺ الذي هو من كبار أصحاب رسول الله ﷺ فضلاً وعلماً.

أثنى رسول الله ﷺ على أبي موسى الأشعري وعلى قومه الأشعريين في عدد من الأحاديث الشريفة، فعن أبي بردة عن أبي موسى ﷺ أنه قال: قال النبي ﷺ: إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم[1].

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٢/ ٨٨٠.

وعن أبي موسى ﷺ أنه قال: قال النبي ﷺ: إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار .(١)

وقد خصهم رسول الله ﷺ دون غيرهم من الناس بأن قسم لهم من غنائم خيبر دون أن يشهدوا فتحها،فعن أبي بردة عن أبي موسى ﷺ أنه قال: قدمنا على النبي ﷺ بعد أن افتتح خيبر، فقسم لنا ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا .(٢)

ولما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(المائدة٥٤) قال رسول الله ﷺ: هم قومك يا أبا موسى، وأومأ رسول الله ﷺ بيده إلى أبي موسى الأشعري(٣).

والطريف أن الأشعريين من أهل اليمن جاؤوا يسألون رسول الله ﷺ عن المسائل نفسها التي خاض فيها الأشعري ﷺ دفاعاً عن الإسلام ومعتقد أهل السنة.

فعن عمران بن حصين ﷺ أنه قال: كنت عند النبي ﷺ إذ جاءه

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/١٥٤٧.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/١٥٤٧.
(٣) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣٤٢.

قوم من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشرتنا فأعطنا! فدخل ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم! قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء ..[١]

بل يذكر الإمام الشهرستاني رحمه الله أن طريقة أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه هي طريقة جده أبي موسى رضي الله عنه في جدله مع عمرو بن العاص رضي الله عنه.[٢]

قال الحافظ ابن عساكر رحمه الله بعد أن ذكر أمر النبي ﷺ للأشعريين أن يعلموا جيرانهم ويفقهوهم في الدين:

(فالأشعريون بالفقه في زمن رسول الله ﷺ موصوفون، وبالعلم عند الأعلام من الصحابة رضي الله عنهم معروفون، وأشهرهم بالفقه والعلم في ذلك الزمن أبو موسى الأشعري جد الإمام أبي الحسن، وكفاه بذلك عند العلماء شرفاً وفضلاً، وما أسعد من كان أبو موسى له سلفاً وأصلاً؛ فالفضل من ذلك الوجه أتاه، وما ظلم من

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٦/ ٢٦٩٩.
(٢) راجع: الملل والنحل ص٩٤.

أشبه أباه) .[١]

هذه بعض فضائل الأشعريين عموماً، وهناك ما يخص أبا موسى ﷺ ومن أعظم فضائله التي لا نطيل بذكرها أن رسول الله ﷺ دعا له.

فعن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: اللَّهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً .[٢]

وهذه مكرمة عظيمة ومنقبة للشيخ أبي الحسن ﷺ فعن حذيفة ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولده .[٣]

❀ ❀ ❀

(١) تبيين كذب المفتري ص٦٦.
(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٤/ ١٥٧١.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٣٨٥.

ولادته

ولد الإمام أبو الحسن الأشعري ﵁ في البصرة سنة ستين ومائتين؛ وقيل: ولد سنة سبعين ومائتين.



شيوخه

ابتدأ الإمام الأشعري ﷺ أمره معتزلياً كما سنفصل ذلك فيما بعد، وأخذ طريقته في الاعتزال عن أبي علي الجبائي وهو من كبار شيوخهم،كما أخذ عن آخرين منهم،ودرس فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة ﷺ شأنه شأن المعتزلة فمعظمهم كانوا حنفية وبعضهم كان شافعياً.

أما بعد تحوله إلى مذهب أهل السنة والجماعة فأخذ العلم عن بعض شيوخ أهل السنة، فقد أخذ الحديث عن زكريا بن يحيى الساجي ،كما أخذ عن ابن سريج،وكان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي اسحق المرزوي الفقيه في جامع المنصور.



صفته وأخلاقه

كان الإمام الأشعري ﵁ متواضعاً، شديد الحياء،ورعاً حسن الخلق،لطيفاً بهي المنظر مهيباً،ينصف الناس ويحترمهم،من أكثر الناس دعابة، وكان قانعاً متعففاً،حريصاً على جمع كلمة المسلمين،وكان كجده أبي موسى الأشعري موصوفاً بحسن الصوت.

وهذه قصة تبيّن إنصافه وحسن خلقه؛ فقد حضر الأشعري بعض مجالس المناظرة وناظره إنسان فانقطع في يده،أي انقطع الأشعري عن الحجة،وكان معه رجل من العامة فنثر عليه لوزاً وسكراً،فقال له الأشعري: ما صنعت شيئاً؛خصمي استظهر علي وأوضح الحجة وانقطعت في يده، كان هو أحق بالنثار مني!

ثم بعد ذلك أظهر خصمه التوبة والانتقال عن مذهبه إلى مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة.

كما كان حاضر البديهة شديد الحفظ فطناً، قال أبو عبد الله بن خفيف رحمه الله: دخلت البصرة وكنت أطلب أبا الحسن الأشعري رحمه الله؛ فأرشدت إليه، وإذا هو في بعض مجالس النظر فدخلت، فإذا جماعة من المعتزلة فكانوا يتكلمون، فإذا سكتوا وأنهوا كلامهم قال لهم أبو الحسن الأشعري لواحد واحد: قلت كذا وكذا، والجواب عنه كذا وكذا، إلى أن أجاب الكل، فلما قام خرجت في أثره فجعلت أقلب طرفي فيه فقال: إيش تنظر؟ فقلت: كم لسان لك؟!

وكم أذن لك ؟! وكم عين لك؟!

فضحك، وقال لي: من أين أنت؟ قلت: من شيراز. وكنت أصحبه بعد ذلك.

❊ ❊ ❊

البيئة التي نشأ فيها

في عصر ازدهار الدولة الإسلامية واستقرارها السياسي وانتشار الإسلام واتساع رقعة دولته حيث دخل الناس في دين الله أفواجاً،وُجد هناك من حمل آثاراً من رواسب ديانته السابقة؛حيث كان حديث عهد بإسلام، وكان يحتاج إلى المزيد من التعلم للدين الجديد،وهناك صنف آخر دخل في دين الإسلام ظاهراً بينما يحمل في طيات قلبه حقداً دفيناً على الإسلام وأهله،ويتحين الفرص للطعن بالإسلام وتشويهه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً،عرف هذا الصنف بالزنادقة..

كذلك عرف هذا العصر ترجمة علوم الأوائل ومعارفهم من يونان وفرس وهنود وغيرهم..وقد كانت حركة الترجمة مدعومة بسخاء من قصور الخلفاء تشجيعاً للمعارف الإنسانية، وللاستفادة من العلوم العامة المفيدة كالطب والصيدلة والهندسة وغير ذلك؛خاصة أن

الإسلام قد شجع على ذلك.

ولكن علوم الأوائل كانت تحمل في طياتها كثيراً من الزغل والفساد ولاسيما الفلسفات الملحدة، فظهرت في الصف الإسلامي بوادر التأثر السلبي بتلك المعارف، إضافة إلى التأثيرات الإيجابية التي كانت مقصودة بحركة الترجمة هذه.

وإلى جانب هذا كله كان يقف أهل الكتاب من يهود ونصارى يتربصون الدوائر بأهل الإسلام، وقد يحصل أحياناً نوع من التحالف الضمني بين هذه الفرق في الحرب الفكرية على الإسلام؛ ذلك لأن الكفر ملة واحدة.

وبعد أن طرأ بعض الفتور على الفتوح الإسلامية ازداد الناس تفرغاً لتلك الآراء المبثوثة، وتغلّبت على عقولهم شهوة التعمق فيها، وأخذ أمثال ابن المقفع وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس وعبد الكريم بن أبي العوجاء وغيرهم يواصلون السعي في نشر الإلحاد بين المسلمين وترجمة كتب الملاحدة والمجوس حتى استفحل أمرهم.

مما أوجب على أهل الإسلام ـ ولاسيما كبار العلماء منهم ـ التصدي لتلك الفرق الضالة المنحرفة، بكل ما يملكون من طاقة، بما

في ذلك دراسة تلك الفلسفات والأفكار الوافدة، ونقضها من الداخل، كل ذلك في سبيل نصرة الدين الحق..دين الإسلام، كما أمر الخلفاء علماء الجدل والعقيدة بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين؛ فأقاموا البراهين وأزالوا الشبه وأوضحوا الحق وخدموا الدين [1].

وكان من بين القائمين بأعباء تلك المدافعات طائفة من المعتزلة؛ فأصبحوا ـ أي المعتزلة ـ بين عدوين؛ عدو محتال من خارج الملة له آراء وفلسفة تدرب عليها من عهد قديم، وعدو جاهل أحمق من داخل الأمة كادت الأكثرية تنحاز إليه وتفتتن به لتقشفه؛ وهو بعيد عن قضايا العقول، راجت عليه تمويهات المضلين من اليهود والمجوس، قصارى عمله الوقيعة بعلماء المعقول، لا يفرق بين العدو والصديق، ولو وكل إليه الأمر لما أمكنه أن يدافع ساعة من نهار؛ فاشتغل أولئك العلماء المعتزلة بالعدو الخارجي، وغضوا النظر عن العدو الداخلي، حتى أتموا الرد على الزنادقة وكشفوا باطلهم.

ثم انصرفوا إلى العدو الداخلي الجاهل وأظهروا سخف آرائهم، وقد علق بنفوس هؤلاء المدافعين ـ أي المعتزلة ـ ما لا يستهان به من أمراض قلبية وشبهات عقلية عدت إليهم من مناظريهم.

---

(١) راجع مقدمة العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري ﷺ لكتاب تبيين كذب المفتري، ص٢١.

وكان غالب الفقهاء وحملة السنة طول هذه المكافحات يأبون الخوض في تلك المسائل ويجرون على ما كان عليه الصحابة وخيار التابعين من الاقتصار على ما ثبت من الدين بالضرورة، مع أن أعداء الدين كان لهم أسلحة لا يمكن مقابلتهم إلا بمثل أسلحتهم [(١)].

فحصلت فجوة كبيرة بين أهل الجدل من المعتزلة المدافعين عن الإسلام وبين فقهاء الأمة ومحدثيها.

ومما زاد الطين بلة في مثل هذه الظروف وقوف المأمون مسانداً للمعتزلة،وناصراً لهم على أهل الفقه والحديث،فحمل الناسَ بقوة السلاح على القول بخلق القرآن ـ أشهر مسائل الخلاف التاريخية بين المعتزلة وأهل السنة ـ وعلى ما يتوهمه هو وأشياعه المعتزلة من اعتقادات تنزيهاً للباري ﷻ، وأخطر انحراف يمكن أن يطرأ على الفكر دخول الدولة طرفاً في النزاع الفكري.

وانقضى عهد المأمون فسار المعتصم في الناس بسيرة سلفه المأمون، وانقضى عهد المعتصم وجاء الواثق فسار بالناس سيرة سابِقَيه، بل أشد حيث حمل الناس على القول بنفي رؤية الباري ﷻ يوم القيامة.

---

(١) راجع السابق ص٢١ وما بعدها .

واستمرت المحنة للفقهاء والمحدثين إلى أن جاء الخليفة المتوكل وأوقف هذه المحنة بمنع الناس عن الخوض في هذه المسائل، [١]هذه المحنة التي عانى منها أهل العلم فقتل بعضهم وسجن آخرون، وورّى بعضهم حتى يسلم من العذاب المهين، ووقف بعض العلماء غير آبه بالعذاب والنكال مدافعاً عن مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة،وعلى رأس هؤلاء الإمام الجليل أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

إن المتوكل لم ينصر أهل السنة، لكنه أوقف الدعم الذي كان يلقاه المعتزلة،ووقف بالحياد [٢] ، فعاد الفقهاء والمحدثون وعلماء السنة والجماعة إلى أعمالهم العلمية من تعليم وتصنيف ورحلات بهدوء تام، حيث كانوا يرون أن مهمتهم العظمى هي نقل الدين سليماً من الشوائب إلى من بعدهم كما تلقوه عمن قبلهم.

ولكن علت من جديد أصوات الرعاع وجهلة العوام الذين تأثروا بعقائد أهل الكتاب،وخاضوا فيما لا يجوز الخوض فيه، فوصفوا الباري بما لا يجوز أن يوصف به، فوصفوه بالحركة والانتقال

(١) راجع السابق ص٢١ وما بعدها .

(٢) إن المتوكل هذا لم يكن مرضي السيرة ولعل هذه هي الحسنة الوحيدة التي كانت بارزة في حياته السياسية.

والجلوس وأثبتوا له المكان سبحانه وتعالى علواً كبيراً،وخاضوا في حشو الكلام، وحشو الكلام هو الكلام الفارغ الذي لا طائل تحته،فسماهم أهل العلم: "الحشوية" [١] فهم ينسبون للباري ﷻ صفات خلقه،ودليلهم لذلك إما أخبار مكذوبة مدسوسة منسوبة إلى رسول الله ﷺ زوراً وبهتاناً، تلقوها من اليهود والمجوس أو اختلقوها هم، أو فهم سقيم للنصوص الصحيحة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تأبى هذا الفهم قواطع الشريعة التي هي المرجع عند النزاع فهي أم الكتاب ،كما تأباه قواعد اللسان العربي التي جاء بها هذا الدين.

وإلى جانب هؤلاء يعيش المعتزلة في ضلالهم القديم،وقد تكدّس عليهم الغبار الذي نالهم من جدل خصومهم من الملاحدة والزنادقة، وإذا كانت الحشوية قد أفرطت في الإثبات حتى وصل بهم الأمر إلى التجسيم فإن المعتزلة قد أفرطوا في التنزيه حتى وصل بهم الأمر إلى تعطيل الباري ﷻ عن بعض صفاته الثابتة، وكلا الطرفين خطأ،وكما قالوا سابقاً: المعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً.

---

(١) اختلف في ضبط هذه الكلمة على قولين: الأول بإسكان الشين نسبة إلى حشو الكلام، والثاني بفتح الشين نسبة إلى حشا الحلقة أي طرفها، وذلك لرواية تنسب إلى الحسن البصري حيث قال حين سألوه: أخرجوهم إلى حشا الحلقة أي: طرفها.

نسي الناس دفاع المعتزلة عن الإسلام والقرآن؛ لكثرة ما فعلوا بالمسلمين وأئمتهم،كما أن بضاعة المعتزلة وإن كانت في العلوم العقلية واللغوية وافرة لكنها في العلوم النقلية، ولاسيما سنة سيدنا رسول الله ﷺ ضئيلة وضعيفة، أما الحشوية فبالعكس من ذلك لا حظ لهم في المعقول،وإن حاولوا التمويه بالاستدلال بالسنة فبضاعتهم مليئة بالأخبار الضعيفة الواهية والمكذوبة، فكلا الطرفين إما مفْرِط أو مفرِّط، أما الوسطية والاعتدال فهي في صفوف أئمة الإسلام من الفقهاء والأصوليين والمحدثين،ولكن صوت هؤلاء كان خافتاً يتداوله أهل العلم في ما بينهم وفي حلقاتهم العلمية، وأبواق الجهلة تنعق بالباطل في كل مكان!

في مثل هذه الظروف وهذه الأزمة الحرجة التي مرت بها الأمة الإسلامية ظهر إمامنا الجليل شيخ السنة أبو الحسن الأشعري ﷺ.

وقبل أن ننتقل إلى الإمام الأشعري لا بد من تعريف بسيط بالمعتزلة حتى يتسنى للقارئ التمييز بينهم وبين أهل السنة والجماعة؛ فمن المعتزلة؟.



التعريف بالمعتزلة

نشأ المعتزلة في الظروف السابقة التي ذكرناها، وهم من أهل الإسلام وغايتهم نصر الدين ولهم جهود مشكورة في الذود عن حياض الإسلام، ولاسيما في مجادلة ملاحدة الفلاسفة والملل الأخرى، كاليهود والنصارى وغيرهم كما أسلفنا. ولكنهم بعد أن انتصروا على أعداء الإسلام أصابهم بعض الزغل وسرى إليهم من بعض مجادليهم المتعمقين في الفلسفة ما أدى بهم إلى البدعة في مسائل عديدة أصولها خمسة هي:

الأول: التوحيد.

والثاني: العدل.

والثالث: الوعد والوعيد.

والرابع: المنزلة بين المنزلتين.



والخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا يكون الرجل معتزلياً إلا باجتماع هذه الأصول كاملة على اعتقاد المعتزلة، وليس كل ما قالوه باطلاً في هذه الأصول، فبعض ما بني عليها قد يسلم وبعضه أيضاً الخلاف فيه غير محرر، وكثير مما قالوا فيها باطل؛ إذ هو مصادم للنصوص الشرعية الصحيحة الصريحة،فهذه الأصول قد يصح في بعضها أنه حق أريد به باطل؛فبناء على أصل التوحيد ـ الذي هو مجمع عليه ـ أنكروا صفات المعاني لله تعالى كالسمع والبصر والقدرة ..،فقالوا: إن الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر..إلخ،وحجتهم في هذا التوحيد،وذلك خشية منهم من تكثير القدماء؛حيث توهموا أن تعدد الصفات يؤدي إلى تعدد الذات.

وبناء على أصل العدل لزمهم إنكار القدر؛ فأرادوا تنزيه الله تعالى عن الظلم فلزم من ذلك وصفه تعالى بعدم العلم بأفعال العباد.

وزعموا أن وعيد العصاة لا يتخلف كما أن الوعد للمحسنين لا يتخلف باتفاق المسلمين، وجعلوا عصاة المسلمين الذين لم يتوبوا في منزلة بين المنزلتين؛ فهم يخلدون في النار لكن بعذاب دون عذاب الكافرين. ولعل هذه المسألة هي أول مسائل الاعتزال ظهوراً في تاريخ المعتزلة وبسببها اعتزل واصل بن عطاء أول أئمة المعتزلة مجلس الحسن البصري.

كما أوجبوا الخروج على الحاكم الظالم وذلك من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مخالفين بذلك النصوص الصحيحة التي تنهى عن الخروج إلا بكفر بواح.

ولسنا هنا بصدد الرد على مخالفاتهم؛ فقد تولى الرد عليهم علماء الإسلام بدءاً من إمام أهل السنة أبي الحسن إلى يومنا هذا.

ونود هنا أن ننبه إلى أن المعتزلة قد توسعوا جداً في الدليل العقلي لدرجة أنهم في كثير من الأحيان كانوا يميلون على النص لصالح العقل، ومما اشتهر من مسائلهم مسألة التحسين والتقبيح العقليين، وإيجابهم على الله تعالى الصلاح والأصلح، بينما يقرر أهل السنة أن الحسن والقبح في الشرعيات؛ بمعنى ترتب الثواب على المأمور به وترتب العقاب على ارتكاب المنهي عنه اعتباري؛ أي: باعتبار الشرع وليس عقلياً، بينما يتفق أهل السنة معهم على أن هناك حسناً وقبحاً جاءا من جهة العقل؛ فالحسن والقبح بمعنى ميل الطبع ونفرته عقلي، فالنفوس السليمة تستحسن جمال الورد مثلاً وتستقبح الأوساخ، كما أن الحسن والقبح بمعنى الألم واللذة أيضاً من العقل، فهذان محل اتفاق بين أهل السنة والمعتزلة، إنما الخلاف في الشرعيات، فعند أهل السنة العقل تابع للشرع هنا وعند المعتزلة

العقل يحسن ويقبح استقلالاً [١]؛هذا مع التركيز على اتفاق أهل السنة والمعتزلة على استحالة مخالفة العقل للشرع وإن اختلفوا في تطبيق هذا المبدأ.

ونؤكد هنا أن عامة المعتزلة بكثير من مسائلهم كانوا متأولين لا يكفرون بها عند المحققين من علماء أهل السنة، ولكن كان ينقص المعتزلة التحرير العلمي والتحقيق لكثير من تلك المسائل، ولما قام إمامنا أبو الحسن وأتباعه من بعده بذلك التحرير زال الاعتزال تلقائياً بعد أن اتضحت المسائل؛ لذلك نرى أن الاعتزال مرحلة من مراحل الفكر مرت بها الأمة ثم تجاوزتها بعد ذلك.

وعلى هذا فإن تباكي كثير من أعداء الإسلام وأشباه المسلمين وأنصاف المفكرين في هذا الزمان على المعتزلة ما هو إلا تبرم بالإسلام؛ فالمعتزلة ما أنكروا الشرائع وما ضيقوا دائرة التكليف كما يحاول هؤلاء المتباكون أن يلبسوا على الناس؛ بل اعتمدوا على العقل في نصرة الدين؛ وإن أصاب بعضهم بعض الشطط تولى

---

(١) لعل هذه من المسائل التي لم تكن محررة أيام الاعتزال الأولى؛ ولعل المعتزلة الأوائل إذا ما نظروا إلى تحرير محل النزاع لم ينازعوا في هذه المسألة، نذكر هنا أن مذهب الماتريدية وهم الوجه الآخر لأهل السنة توسطوا هنا بين الأشعرية والمعتزلة في مسألة الحسن والقبح.

الراسخون في العلم من أمثال الأشعري إعادتهم إلى الحق بالحجة والبرهان، أما هؤلاء فيحاولون توريط العقل في التخلص من الدين، وشتان بين هؤلاء وبين أولئك؛ فالعقل ما هو إلا شاهد عدل على صدق الرسل يستحيل أن يخالف ما جاء به الرسل!

كما يجدر التذكير بأن أهل السنة الأشعرية قد استفادوا كثيراً من تراث المعتزلة في محاربة الإلحاد والفلسفات الضالة، وكذلك في مجادلة أصحاب الأديان الأخرى والفرق الإسلامية المنحرفة.



نشأة الإمام الأشعري

وكيف تحوّل لنصرة أهل السنة؟

كان إمامنا أبو الحسن الأشعري ﷺ يعيش في كنف المعتزلة؛ فهو ربيب إمام من أكبر أئمتهم ألا وهو أبو علي الجبّائي فهو زوج أمه، تتلمذ عليه منذ نعومة أظفاره، حيث لقنه أصول المعتزلة وطريقتهم قبل أن يشتد عوده، فهو لا جرم تلميذه المقرب؛ ظل يلازمه ويأخذ عنه لا يفارقه أربعين سنة، حتى وصل الأمر بالجبائي أنه كان إذا عرض له عارض من مرض أو غيره، يمنعه من الحضور في المجالس العلمية والمناظرات يبعث الأشعري ويقول له: نب عني.

فالشيخ أبو الحسن تمرس في طريقة المعتزلة حتى تبحر في كلام الاعتزال وبلغ مكانة مرموقة لديهم، وصار يشار إليه بالبنان، ولكنه كان ذا عقل منير وفطرة سليمة، كما كان باحثاً عن الحقيقة دون تعصب، فقد كان يورد الأسئلة على أساتذته في الدرس، ولا يجد

فيها جواباً شافياً؛ فتحير في ذلك أشد الحيرة، وبقي باحثاً عن الحقيقة متعطشاً لها، ملتجئاً إلى الله العلي الكبير أن يلهمه رشده ويدله على الحق الذي يريده الله ويرتضيه.

ولما جاوز حد الأربعين ـ زمن النضج الفكري واكتمال القوى العقلية ـ ازدادت الحيرة لديه بازدياد بحثه عن الحقيقة مع زيادة الالتجاء إلى الله حتى يفهمه الحق أتاه توفيق الله تعالى واتضحت الصورة لديه، ولكن الحيرة لم تفارقه فكان بحاجة إلى طاقة روحية تثبت فؤاده وتحوله من علم اليقين إلى عين اليقين.

أدام الالتجاء إلى الله والابتهال له حتى يعرفه الحق ويلهمه رشده؛ فحكي عنه أنه قال: وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد ـ أي شك وارتياب ـ فقمت وصليت ركعتين وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم ـ وهذا دأب الصالحين حيث يعترفون بعجز عقولهم دائما أمام باريهم ﷻ ويلتمسون منه الهداية عند مزلات الأقدام ـ قال: ونمت فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر؛ فقال رسول الله ﷺ: عليك بسنتي. فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار فأثبته ونبذت ما سواه ورائي ظهرياً. ومن ثم تحول إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

وكان قبل ذلك قد غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً متفكراً متأملاً.

ثم خرج إلى الجامع؛ فصعد المنبر يوم الجمعة، وقال: معاشر الناس؛ إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق على باطل، ولا باطل على حق؛ فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا.

وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به، ودفع الكتب إلى الناس، فمنها كتاب: (اللمع) وكتاب أظهر فيه فساد رأي المعتزلة سماه كتاب: (كشف الأسرار وهتك الأستار) وغيرهما.

فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا بما فيها وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إماماً؛ حتى نسب مذهبهم إليه.

أما المعتزلة فأعلنوا عليه الحرب وشنعوا عليه ولفقوا الأكاذيب والأباطيل وحقدوا عليه، فصار عندهم ككتابي أسلم وأظهر فساد ما تركه، ولكن ذلك لم يثنه شيئاً، بل ازداد عزماً وثباتاً على الحق المبين.

وهناك روايات أخرى في تفاصيل هذه الرؤيا المباركة؛ وأنها

تعددت وأنها كانت في رمضان وأن فيها الوعد من رسول الله ﷺ بأن الله سيمده بمدد من عنده، وأن كل ذلك قد حصل للإمام رضي الله عنه وإنما أضربنا عن بسط الروايات خشية الإطالة[1].

❀ ❀ ❀

(١) قد بسط تلك الروايات بأسانيدها الحافظ ابن عساكر الدمشقي رحمه الله فمن أراد الاستزادة فليراجع كتابه الماتع: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ص٤٣ وما بعدها.

منهج الإمام الأشعري

في البحث عن الحقيقة

يمكن لنا من هذه الحادثة أن نستشف منهج الإمام الأشعري رضي الله عنه في البحث عن الحقيقة، ويمكن أن نلخصه في الآتي:

١ـ البحث عن الحقيقة ونبذ التعصب؛ حيث لم تمنعه أربعون سنة قضاها في الاعتزال أن يرجع إلى الحق لما ظهر له، وفي هذا درس لكل باحث عن الحقيقة أن لا تأسره فكرة ما ولو طال اعتقاده لها، بل يتبع الحق متى ظهر له.

٢ ـ دوام الفكر دون توقف، وكثرة التأمل مع الخلوة المؤقتة حتى يتفرغ الذهن من الشواغل.

٣ـ الالتجاء إلى الله تعالى والاعتراف بالعجز بين يديه سبحانه وتعالى، ودوام الخضوع له والتماس الهداية منه؛ لأنه وحده القادر على خلق الهداية والتوفيق لها، مع الأخذ بالأسباب، ولكن الاعتماد على

الله وليس على تلك الأسباب.

٤ ـ اعتماد الكتاب والسنة أصلاً وحيداً في الشرعيات، فما وافق الكتاب والسنة في قضايا الشرع قُبل وما لم يوافق رُد، ولا يعد هذا انتقاصاً للعقل؛ إذ العقل مجاله العقليات، أما في الشرعيات فعمله منحصر في إثبات صدقها أولاً ثم فهمها الصحيح ثانياً، والعمل بمقتضاها أخيراً.



نسبة أهل السنة
إلى الأشعري

إن من المعلوم لكل من طالع كتب التراث الإسلامي أن الكثرة الساحقة من أهل السنة والجماعة ينتسبون إلى مذهب الأشعري، والبقية الباقية من أهل السنة لا يخالفون الأشعري في شيء من المسائل الخطيرة، فأهل السنة من بعد الأشعري تبع لطريقته.

وهنا يأتي سؤال كيف يكون أهل السنة منتسبين إلى مذهب رجل واحد منهم؟!

وللجواب عن هذا التساؤل نقول: إن الأشعري رضي الله عنه ومدرسته من بعده لم يأتوا بدعاً من القول أو الاعتقاد وإنما نصروا عقيدة السواد الأعظم عقيدة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، العقيدة الموافقة للعقل والشرع، ولكثرة ما ألف في نصرتها وتقريرها وتبيين قواعدها وتأصيل أصولها صارت هذه الطريق تنسب إليه.

ولمزيد من الإيضاح نضرب أمثلة أخرى ليتضح هذا الأمر:

يعرف المسلمون اليوم فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ويسمون المنتسبين إليه الحنفية، وفقه أهل المدينة بفقه مالك وأصحابه بالمالكية، فهل ابتدع أبو حنيفة ومالك رضي الله عنهما مذهباً جديداً واخترعا طريقة في الدين حاشاهما! إنما نصر الأول فقه جماعة من الصحابة والتابعين كان يسمى مذهب أهل الرأي وألبسه ثوباً جديداً وأيده بالأدلة، وقعد قواعده وأعاد له رونقه، ونفض عنه الغبار؛ فصار ينسب إليه، وكذا فعل مالك بما كان يسمى فقه أهل المدينة فصار يسمى فقه مالك وأصحابه المالكية.

ومثل ذلك القراء السبعة والعشرة؛ فهل قراءة عاصم أو الكسائي أو حمزة من اختراعهم؟! إنما أقرأ كل منهم إحدى القراءات الثابتة المتواترة عن سيدنا رسول الله ﷺ فكان يقال: القراءة التي يقرأ بها عاصم أو التي اختارها عاصم، أو القراءة التي اختارها الكسائي، ثم اختصر هذا الكلام، إلى قراءة عاصم وقراءة الكسائي، وكذلك فعل الأشعري ﷺ بتقعيد مذهب أهل السنة وتأصيله والدفاع عنه، فسمي باسمه وهو خلاصة مذهب الصحابة وجمهور التابعين لا يزيد ولا ينقص.

وقد نقل الإمام ابن عساكر عن الشيخ الفاضل رافع الحمال الفقيه قوله عن الإمام الأشعري أنه: (لم يكن هو أول متكلم بلسان

أهل السنة؛ إنما جرى على سنن غيره وعلى نصرة مذهب معروف؛فزاد المذهب حجة وبياناً ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهباً انفرد به ..وليس له في المذهب أكثر من بسطه وشرحه و تواليفه في نصرته).

كما نقل العلامة ابن عساكر عن جماعة من كبار أئمة المسلمين قولهم عن الإمام الأشعري بأنه: (إمام من أئمة أصحاب الحديث ورئيس من رؤسائهم في أصول الدين وطريقته طريقة السنة والجماعة ودينه واعتقاده مرضي مقبول عند الفريقين).

وينقل الإمام ابن عساكر عن أبي عبد الله محمد بن موسى بن عمار الكلاعي المايرقي الفقيه سبباً من أسباب تميز الإمام الأشعري على غيره من أئمة أهل السنة الكبار كعبد العزيز المكي والحارث المحاسبي وعبد الله بن كُلَّاب، فيقول:(أعظم ما كانت المحنة ـ يعني المعتزلة ـ زمن المأمون والمعتصم فتورع من مجادلتهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه؛فموهوا بذلك على الملوك وقالوا لهم:إنهم ـ يعنون أهل السنة ـ يفرون من المناظرة؛لما يعلمونه من ضعفهم عن نصرة الباطل،وإنهم لا حجة بأيديهم،وشنعوا بذلك عليهم حتى امتحن في زمانهم أحمد بن حنبل وغيره؛فأخذ الناس حينئذ بالقول بخلق القرآن حتى ما كان تقبل شهادة شاهد،ولا يستقضى قاض ولا

يفتي مفت لا يقول بخلق القرآن!

وكان في ذلك الوقت من المتكلمين جماعة كعبد العزيز المكي والحارث المحاسبي وعبد الله بن كُلَّاب وجماعة غيرهم، وكانوا أولي زهد وتقشف لم ير أحدٌ منهم أن يطأ لأهل البدع بساطاً ولا أن يداخلهم فكانوا يردون عليهم ويؤلفون الكتب في إدحاض حججهم، إلى أن نشأ بعدهم وعاصر بعضهم أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري رضي الله عنه وصنف في هذا العلم لأهل السنة التصانيف وألف لهم التواليف، حتى أدحض حجج المعتزلة وكسر شوكتهم.

وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم فكلم في ذلك، وقيل له: كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم؟! فقال: هم أولوا رياسة؛ معهم الوالي والقاضي؛ ولرياستهم لا ينزلون إلي؛ فإذا كانوا هم لا ينزلون إلي ولا أسير أنا إليهم فكيف يظهر الحق ويعلمون أن لأهل السنة ناصراً بالحجة؟!

وكان أكثر مناظرته مع الجبائي المعتزلي وله معه في الظهور عليه مجالس كثيرة، فلما كثرت تواليفه ونصر مذهب السنة وبسطه تعلق بها أهل السنة من المالكية والشافعية وبعض الحنفية فأهل السنة بالمغرب والمشرق بلسانه يتكلمون وبحجته يحتجون، وله من التواليف والتصانيف ما لا يحصى كثرة).

فقد كانت الحكمة في أيام سلف أبي الحسن تقتضي عدم التصدي لأهل البدع بالرد حتى لا يظهر أمرهم وينتبه الناس إلى بدعتهم، إضافة إلى ورع السلف الصالح عن غشيان مجالس الأمراء وأهل الدنيا خوفاً على قلوبهم من التأثر بزخارف الدنيا، ولكن الحكمة الأولى انتفت حين ظهر أهل البدعة وصار لهم دولة ورجال فمخاوف الأوائل من مناظرتهم لم تعد مجدية؛ بل صارت المصلحة للأمة الإقدام على مناظرتهم وإفحامهم حتى لا يغتر ببدعتهم جاهل، بعد أن كانت المصلحة هي الإحجام.

ثم إن الحكمة الثانية من باب الورع، والورع ليس له حدود ومصلحة الأمة مقدمة على مصلحة الفرد؛ فالأشعري ببصيرته الثاقبة حقق مقصود الأوائل ولكن بوسيلة تختلف عن وسائلهم.

فالحقيقة التي يجب تأكيدها والاعتناء بها هي أن الإمام الأشعري وأصحابه من بعده ليسوا مخترعين لمنهج جديد؛ بل هم مُظهرون لما سلف من اعتقاد أصحاب الرسول ﷺ والتابعين لهم بإحسان، والسواد الأعظم من علماء الأمة، وجهوده منحصرة في تقرير هذا المذهب وتجليته ونفض الغبار عنه، وهذا لا يمنعهم من استخدام وسائل جديدة في نصرة هذا المذهب بعد محافظتهم على أصوله ومقاصده؛ فاتباع السلف يكون في مناهجهم لا في مسائلهم.

الأشعرية
هم أهل السنة

إن الأشعرية الذين اتبعوا الإمام أبا الحسن في تحرير مذاهب أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان هم أهل السنة المدافعون عن عقيدة كافة أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من نقلة العلم الشريف في العصور الأولى المشهود لها بالخيرية، كما سبق أن قررنا مؤيداً بالنقل عن أهل العلم ،ولا يشك في هذا إلا أحد شخصين: جاهل يجب تعليمه،أو متعصب أعماه الهوى عن الحقيقة؛فصار يتخبط بحثاً عن قيل أو قال ينصر به بدعته وينسبه إلى السلف الصالح،وما سلف هؤلاء إلا أمثال مقاتل بن سليمان الذي ابتدع في الأمة بدعة التجسيم وتشبيه الله تعالى بخلقه، حيث أخذ ذلك عن اليهود والنصارى كما هو معروف لكل من قرأ ترجمته ،أو تابِعُه في الضلالة محمد بن كرّام إمام طائفة الكرّامية الضالة،تعالى

الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً! (١)

ومن هذا الصنف المتعصب أقوام من بقايا خصوم أهل السنة في نفوسهم غل وحقد على الأشعري ومدرسته لأنهم قوّضوا أركان البدع؛ فهؤلاء يتحينون الفرص للنيل من أهل السنة والوقيعة بهم ما تيسر لهم إلى ذلك سبيل ويركبون لذلك كل صعب وذلول.

وكيف لا يكون هؤلاء العظام أهل السنة ولا يستطيع أحد في الدنيا اليوم أن يفهم سنة سيدنا رسول الله ﷺ إلا من خلال شروحهم! فإذا أراد شخص أن يفهم حديثاً في صحيح البخاري مثلاً وهو أهم كتاب في السنة وأصح الكتب بعد كتاب الله تعالى فهل يستطيع أن يتجاوز جميع شراحه وهم من الأشعرية؟ (٢)

---

(١) ومن أخطر ما في بدعتهم أنهم يلقونها إلى العوام الذين لا يفهمون الأمور إلا قياساً على محسوساتهم؛ فلا ينفع معهم بعد ذلك حل.

(٢) قلت مرة لأحدهم بعد أن قرر أن الأشعرية مبتدعة وأهل ضلالة كعادة هؤلاء الناس في شتم الصالحين وأولياء الله تعالى دونما وجل أو تحرج! قلت له: إذا كان هؤلاء جميعاً كما وصفت فلماذا تقررون دراسة كتبهم كالنووي وابن حجر العسقلاني والسيوطي في جميع معاهدكم وجامعاتكم الشرعية؟! فقال: نحسّن الظن بهؤلاء لعله لم تصلهم عقيدة السلف! فقلت: سبحان الله يبحث الواحد من هؤلاء جميع الطرق لحديث واحد ولا تصله عقيدة السلف؟! فانظر ما يفعل التعصب بأهله وقانا الله وإياك الهوى!

أدرك هؤلاء خطورة ما يدّعون وهذه القضية من أكثر المسائل إحراجاً لهم وكشفاً لزيغ بدعتهم؛ فلجؤوا إلى وسائل خطيرة في التعامل مع كتب أهل السنة منها تحشية هذه الكتب بتعليقات تنصر مذهبهم وترد على أهل العلم الأشعرية، ولاسيما في شروح =

وفي هذا الصدد قد يتساءل شخص فيقول: ذكرت أن الأشعرية هم أهل السنة فقط، فما بال الماتريدية وفضلاء الحنابلة المتبعون لأصحاب رسول الله ﷺ أليسوا من أهل السنة؟!

فأقول: بلى، ولكن شاع وذاع بين أهل العلم إطلاق لفظ الأشعرية على كل أهل السنة حتى وإن كانوا من الماتريدية أو فضلاء الحنابلة، وتأكيداً لهذا أقول إن الهيئات العلمية الشرعية لأهل السنة تدرس كتب الماتريدية كما تدرس كتب الأشعرية دون تفريق؛ بل إن كتب الأشعرية تفيض بأقوال الماتريدية حيث تذكرها باحترام؛ إذ

= البخاري كما فعلوا في تعليق بعض شيوخهم على فتح الباري، وكما صنعوا أخيراً في تعليقهم على شرح ابن الملقن؛ فما لهم لا يؤلفون في شرحه بل يثقلون حواشيه بتعليقات لا تمت إلى العلم بصلة وما هي إلا تهويشات خطابية بزعم أن الشارح خالف السلف أو خالف السنة وهيهات هيهات، فليتنبه طالب العلم إلى مثل هذا.

ومن وسائلهم الاختصار فيحذفون من الكتاب ما لا يروق لهم كما صنعوا في كتاب العواصم من القواصم وكتاب تلبيس إبليس حيث حذفا من الكتابين رد هذين العالمين الجليلين على المجسمة، وكما فعلوا في تفسير العلامة ابن كثير حيث حذفوا ما لا يروق لأهوائهم، وفعلوا الشيء ذاته في تفسير أبي حيان وفي تفسير القاسمي، والمصيبة في الأخيرين أنهم فعلوا ذلك بدون إشارة إلى الاختصار، وهذا خطر عظيم وإساءة للعلم راجع مثلاً خاتمة كتاب بدع التفاسير للشيخ عبد الله الغماري فهو شاهد عيان لبعض هذه الخيانات العلمية.

وبالمناسبة أحذّر طلاب العلم من قراءة المختصرات ما لم نعلم هوية الشخص الذي قام بالاختصار، وكذلك أحذّر من الطبعات التي تخرج في بلاد أهل البدعة؛ فالقوم يجيزون لأنفسهم التصرف في المخطوط من أجل تصحيح عقائد أهل العلم العظام! كما هو معلوم.

الفروق بينهم طفيفة لا تكاد تذكر،وكثير من المسائل الخلاف بينهم لفظي بعد تحرير محل النزاع،ومَن مِن أهل السنة المختصين لم يقرأ كتاب: "دفع شبهة التشبيه"للإمام الجليل ابن الجوزي[١] وهو من فضلاء الحنابلة؟!فالقضية واحدة فأهل السنة هم الأشعرية، والأشعرية هم أهل السنة.

قال الإمام الجليل العارف بالله أبو القاسم القشيري رحمه الله:(اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث،ومذهبه مذهب أصحاب الحديث...من طعن فيه أو قدح أو لعنه أو سبه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة..).



(١) القضية المحورية لهذا الكتاب أن الإمام أحمد بريء مما نسبه إليه بعض جهلة أصحابه من اعتقاد التجسيم،وبيان أن معتقده وفضلاء أصحابه لا فرق بينه وبين معتقد الأشعرية أهل السنة.

القضاء على الاعتزال

فرض الاعتزال على المسلمين ثلاثةٌ من خلفاء بني العباس على مدى سنوات طويلة؛ فصار لهم دولة ورجال ولكن الفكر لا يستمر ولا يستقر فرضاً من حاكم أو دولة وإن طال زمانه فلا بد أن تعود الأمة إلى رشدها، ولابد لحجة العقل أن تغلب حجة السيف .[1]

لما توقف الحكام بالحياد وتركوا إرغام الناس على اعتناق مذهب

---

(١) لا يزال أعداء الإسلام وأذنابهم في بلادنا يتباكون على المعتزلة وما ذاك حباً بالمعتزلة ولكن كرها لأهل السنة والجماعة الذين يمثلون الغالبية الساحقة من المسلمين وبالتالي كرهاً للإسلام، أما المعتزلة فهم من أهل الإسلام وقد كافحوا أسلاف هؤلاء من الزنادقة وردوا عليهم ودحروهم، ولكن تباكي هؤلاء سببه التذمر من الإسلام وتكاليفه، وتوهمهم أن المعتزلة كانوا على طريقتهم، وهذا باطل فالمعتزلة من جملة أهل الإسلام وإن كان لديهم أخطاء منهجية تولى القضاء عليها الإمام الأشعري ومدرسته.
كما يتصور هؤلاء أن المعتزلة كانوا يمثلون المذهب الحر في الإسلام وهذا أيضاً وهم؛ فلم يعان المسلمون في تاريخهم اضطهادا فكرياً كالذي حصل في زمان المعتزلة كما هو معروف لكل من قرأ التاريخ؛ حيث حاولوا فرض اعتقادهم على الناس بقوة السيف والسلطان فأين الحرية في ذلك؟!

معين تنشّط أهل الحق في بيان العقيدة الصحيحة ،وشاء الله تعالى للمذهب المبطل أن ينتقض من داخله،وهذه سنة الله في الأرض﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(الأنبياء١٨) لذا تركت الأمة مذهب الاعتزال ودخلت في مذهب أهل السنة على يد الأشعري طوعاً واختياراً،بعد أن أجبرت على تركه كرهاً واضطراراً.

كان الإمام أبو بكر بن الصيرفي ﷺ: يقول كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فجحرهم في أقماع السمسم.

ولكن أصحاب الأهواء الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان،ساءهم ذلك جداً..كيف ينتصر مذهب أهل السنة والجماعة على يد الأشعري والأشعرية؟

وأين ذهب السيف والحديد؟! الذي به فُرِض مذهب الاعتزال؟!

لم يجدوا جواباً؛بل لم يروا الجواب الصحيح؛بل تعاموا عنه،وهو أن كثيراً من الخلاف قد زال بعد أن تحرر محل النزاع فيه،واتضح للناس صواب مذهب أهل السنة بعد أن عُمّي عليهم زماناً على أيدي الحكام.

وكما أسلفت سابقاً؛ ما الاعتزال إلا مرحلة من مراحل الفكر الإسلامي قد انتهت تماماً بعد التحقيق العلمي.

ولما لم يجد هؤلاء الجواب الصحيح أطلقوا العنان لأفكارهم ولم يجدوا جواباً يركنون إليه إلا كما قالت العرب: رمتني بدائها وانسلت!

فقالوا: انتشر مذهب الأشعرية بالسيف! وراحوا يغربلون التاريخ تفتيشاً وتمحيصاً علهم يجدون خيطاً من خيوط العنكبوت يتشبثون به!

فوجدوا أن السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ﷺ قد أحب مذهب الأشعرية حباً جماً حتى جعل عقيدة الأشعرية وِرْداً له يقرؤه كل ليلة في قصيدة سميت: الصلاحية، وبنى المدارس التي تدرس عقيدة الأشعرية كما هو معروف لكل من قرأ التاريخ.

وغاب عن ذهن هؤلاء المصطادين في الماء العكر أن عقيدة الإمام الأشعري قد استقرت قبل ولاية صلاح الدين ﷺ بمائتي عام فقط!

ثم ألم يفكر هؤلاء الناس لم اتبع السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ﷺ طريقة الأشعري ونصرها؟ وهو كما نعلم من أقوى الرجال وأصلب المقاتلين في تاريخ الإنسانية؟ لولا أن طريقة الأشعري العقلية الشرعية أقوى من سيوف صلاح الدين لما أسَرَته وجذبته كما جذبت غيره من فضلاء المسلمين.

وها هي دولة صلاح الدين زالت منذ ثمانية قرون[١]، وعقيدة الأشعرية راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أليس من المنطقي أن يزول ما فرض على الأمة بزوال من فرضه إن كان الزعم صحيحاً؟

وإذا ما كان صلاح الدين الأيوبي وسلفه من قبل نور الدين الشهيد قد أقاما مدارس كثيرة لأهل السنة في أيامهم فهذا بعد أن استقر مذهب الأشعري تماماً في الهيئة العلمية الإسلامية.

ثم إن السبب الذي جعلهما يفعلان ذلك بعيد كل البعد عما يتصور هؤلاء؛ وذلك أنه لما تولى السلطان نور الدين محمود زنكي ﷺ كانت بلاد الشام ومصر وما حولها تفيض بأفكار الباطنية من آثار الدولة الفاطمية التي كانت مسيطرة قبله عسكرياً وثقافياً فوجد نفسه أمام جبهتين؛ الأولى: عسكرية وهي ظاهرة متحيزة سرعان ما أجهز عليها، أما الجبهة الأخرى: فكانت ثقافية وهي أخطر بكثير من الجبهة العسكرية؛ إذ هي القاعدة الأساسية والمنبع للجبهة الأخرى.

فوجد نفسه أمام خيار صعب لا تجدي معه القوة العسكرية فكان لا بد من خيار آخر هو الدعم المادي للمذاهب الإسلامية التي قضت عليها الدولة الفاطمية.

---

(١) نسأل الله تعالى العلي الكبير أن يمد هذه الأمة برجال مثل صلاح الدين ينتشلون هذه الأمة من أوحال ورطتها التي هي غارقة فيها منذ قرون.

وقد عرف نور الدين أن مقارعة الحجة لا تكون إلا بالحجة وهو الفقيه الحنفي المحدث، كما نظر حوله فوجد المدرسة النظامية التي كانت مركزاً مهماً من مراكز أتباع الإمام الأشعري ترابط في الدفاع عن الإسلام ثقافياً وعلمياً إذا ما كان الجند يرابطون عسكرياً، فقد كان لأقطابها آثار بارزة في مجابهة الغزو الفكري الخارجي الممثل بالباطنية والفلسفات الأجنبية؛ فأرسل يطلب المدرسين الذين تخرجوا هناك ويدعمهم مادياً ومعنوياً للدفاع عن الإسلام وليس عن مذهب معين، فالمدارس الشافعية التي بناها ربما زادت على مدارس أصحاب مذهبه الحنفية، وما ذاك إلا لتقديمه مصلحة الدين على مصلحة مذهب معين.

وقد استفاد نور الدين ﷺ من خريجي المدرسة النظامية وتبناهم في مدارس الدولة النورية وفتح لهم الأبواب لدعم مذاهب أهل السنة ومناهضة الفكر الآخر، وصبغ الدولة بالكتاب والسنة، ووضع مشروعاً فكرياً ثقافياً عقدياً تربوياً تعليمياً استهدف به رعايا دولته ولم يفرق بين علماء الشافعية والأحناف والحنابلة والمالكية وأهل الحديث وشيوخ التصوف؛ الذين يجمعهم جميعاً الانتماء إلى راية أهل السنة والجماعة، فتحرك بهم من خلال جبهة عريضة تنضوي تحت راية أهل

السنة والجماعة في مقاومة الأخطار الفكرية الوافدة[١].

وقد عبر عن هدفه هذا بقوله للفقهاء_ وذلك إثر مخاصمة حصلت بين الفقهاء_:(ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة و إظهار الدين)[٢].

وهنا إضافة لما سبق نقرر الحقائق التاريخية الآتية:

١_ أن نور الدين ومن بعده صلاح الدين لم يقمعوا المعتزلة لسبب بسيط جداً هو أنه لم يكن ثمة معتزلة!

٢_ أن محاربتهما عسكرياً وثقافياً للباطنية التي كانت مسيطرة آنذاك وقد صرّحا بذلك، ثم إن المراجع التاريخية تجمع على هذا.

٣_ أن اختيارهما لمدرسة الأشعرية كان لأنهما أرادا جمع الأمة لتحرير بيت المقدس،وهذا لا يكون إلا بالاعتقاد الصحيح للأمة؛إذ هو الموروث عن أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ ولا يجتمع آخر الأمة

---

(١) راجع: عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ضمن موسوعة الحروب الصليبية، ١/ ١٢؛تأليف د. علي محمد محمد الصَّلابي،المكتبة الشاملة ،الإصدار الثاني.

(٢) الروضتين في أخبار النورية و الصلاحية،ص١٧، تأليف الإمام شهاب الدين أبي شامة المقدسي، المتوفى سنة ٦٦٥للهجرة، ط .موقع الوراق http:// www.alwarraq.com الكتاب مرقم آلياً غير موافق للمطبوع] نقلاً عن المكتبة الشاملة الإصدار الثاني.

إلا على ما اجتمع عليه أمر أولها، وقد حصل لهما مقصودها.

٤ـ من الثابت تاريخياً أن معظم تلك المدارس هدمت وزالت على أيدي التتار في أواسط القرن السابع الهجري، فلو كانت هي السبب الوحيد لبقاء مذهب أهل السنة الأشعرية لعاد مذهب الاعتزال المزعوم بعد ذلك.

ولكن الهوى مع التعصب الأعمى لا يبحث عن حجة ولا يفكر بمنطق سليم؛ لأنه لا يريد الوصول إلى الحق.

ولكنا نقول لمن يريد أن يناطح عقيدة الأشعرية التي هي خلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة وعقيدة السواد الأعظم من علماء المسلمين[1]:

يا ناطح الجبل العالي لتوهنه

أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

---

(١) لا غرابة أن يهجم المعتزلة على الإمام الأشعري ويحاولوا أن يشوهوا صورته أمام الناس فهو الذي أزال دولتهم الفكرية، ولا غرابة أيضاً أن تنال الأقلام المسمومة المأجورة لأعداء الإسلام من الأشعرية الذين يمثلون السواد الأعظم من علماء الإسلام فهناك ثأر قديم وتصفية حسابات؛ إذ نحن نعلم أن علماء الأشعرية البارزين كالباقلاني وإمام الحرمين الجويني وحجة الإسلام الغزالي والرازي وغيرهم قد ضربوا الفلسفات الملحدة ضربات متتالية قصمت ظهورها إلى الأبد، ولكن الغريب حقاً أن يتابع هؤلاء الحاقدين قلة من إخواننا المسلمين، والذين نظن في كثير منهم حسن النية، نرجو الله تعالى لنا ولهم التوفيق وقوة البصيرة والتيقظ لما يحاك للإسلام وأهله.

طريقة الأشعري

في تفسير النصوص(القرآن والسنة)

عاد الإمام الأشعري إلى منهج أهل الحق ونقض مذهب الاعتزال من الداخل، وهو الخبير بدقائق ذلك المذهب العارف بدخائله كما أسلفنا،وأعاد للعلوم الإسلامية ولأهلها رونقها المعروف،فانضوى المفسرون والفقهاء والمحدثون تحت لوائه،بعد أن أمدهم بأسلحة جديدة إضافة إلى أسلحتهم العلمية القديمة،فصار الأشعري إمام أهل السنة،وانضوى تحت لواء هذا الإمام العظيم معظم علماء الإسلام والسواد الأعظم من أمة سيدنا محمد ﷺ،فما هي أبرز معالم طريقة الإمام الأشعري ﷺ تلك الطريقة ذات الجاذبية العظيمة لأبرز العلماء في تاريخ العلوم الإسلامية؟.

سنحاول أن نبرز الخطوط العريضة لهذه المدرسة العريقة، ومواطن قوتها وجاذبيتها التي جذبت إليها كبار أهل العلم على

اختلاف العصور والبلاد وذلك في الآتي:

١ـ الوسطية والاعتدال: غار الإمام الأشعري على أهل الإسلام وعلى النزاع الذي حصل بينهم، والسبب في ذلك النزاع هو التطرف أو التنطع، سواء أكان في الأسلوب أم في الأدوات، فالمعتزلة غلّبوا جانب العقل على النقل (الكتاب والسنة) مما دعاهم إلى رد كثير من نصوص السنة النبوية الثابتة بحجة مخالفتها للعقل، وإلى كثير من التأويلات المجحفة والمتكلفة لنصوص القرآن الكريم، والحشوية أهملوا العقل بالكلية، وتوسعوا في النقل، حتى قبلوا كثيراً من الأخبار الموضوعة والمكذوبة، كما جمدوا عند ظواهر النصوص؛ مما أداهم إلى القول بالتجسيم، ونسبة ما لا يليق إلى الباري ﷻ كالأعضاء والجوارح والجهة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فجاء الأشعري يدعو الناس إلى وسطية الإسلام، فيقول للفريقين: أمهلوا؛ إن العقل من عند الله وهو قانون الله الذي أقام عليه الكون، والنقل رسالة الله إلى خلقه، ولا يمكن أن يتعارض العقل والنقل؛ لأن مصدرهما واحد من عند الإله الحكيم الذي لا يصدر عنه إلا الحكمة البالغة، وإن حصل خلاف بين العقل والنقل فلا بد أن يكون ثمة خلل ما، فإما أن يكون النقل غير صحيح، أو

صحيحاً ولكنه غير صريح، وإما أن يكون ما ظنناه عقلاً ليس مسلّماً، وبالتالي فالخلل في فهمنا وليس للعقل أو للنقل، وهكذا لا بد من التوفيق بين العقل والنقل، بحمل كل واحد على مراد الله تعالى حسب الطاقة البشرية وبعد استفراغ الوسع وبذل أقصى الجهد لذلك، وهنا تأتي المزية الثانية لمذهب الأشعرية ألا وهي:

٢ ـ تحرير الخلاف وفك جهات التعارض: لما كان العقل والنقل متوافقين في أصلهما، والتعارض بينهما إنما هو طارئ بسبب أفهام البشر سعى الإمام الأشعري ﷺ ومدرسته من بعده إلى الإصلاح بين المسلمين المختلفين، بتحرير محل النزاع، وذلك ببيان مواطن الاتفاق والاختلاف، وبذلك ذهب معظم الخلاف بين المسلمين.

ولنضرب على ذلك أشهر مثال اختلف فيه المسلمون سنوات عديدة وكيف استطاع الأشعري ومدرسته فك النزاع فيه، والعودة بالمسلمين إلى الوفاق بعد طول نزاع، ذلك المثال هو قضية خلق القرآن، أقديم وهو صفة من صفات الباري ﷻ،أم هو مخلوق حادث أنزله على خلقه؟

قبل الأشعري قالت المعتزلة: إنه مخلوق، بدليل أنه حروف وأصوات والحرف معلوم أن له بداية ونهاية فكيف يكون قديماً وصفة من صفات الله ﷻ؟! والأصوات ناتجة عن الحركة والحركة والسكون من صفات الأجسام؛ فيستحيل أن يكون قديماً.

والله تعالى وصفه بأنه محدث بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝﴾(الأنبياء٢)

وقال خصومهم: بل هو كلام الله لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة٦) وكلامه صفته وصفاته قديمة.

جاء الأشعري ﷺ وقال لكل من الفريقين: أمهلوا!

فإن أردتم الرسم والتلاوة والحروف والأصوات فهي مخلوقة بلا شك، وهي الدال على كلام الله وليست عين كلام الله.

أما إن أردتم المعاني القديمة وكلام الله النفسي فهي مدلول كلام الله، وهي بلا شك قديمة غير مخلوقة.

وهكذا حرر الإمام الأشعري الخلاف بين الفريقين وارتضى جمهور الأمة هذا الحل الذي فيه تحقيق المسألة؛ فانتهت بذلك محنة خلق القرآن، وبالطريقة نفسها أجاب الأشعري وأصحابه عن جميع

المسائل الخلافية، فانتهى الاعتزال تلقائياً بعد أن تحرر الخلاف.[1]

٣ـ المنهجية العلمية الدقيقة في تناول الأمور: امتاز مذهب الإمام الأشعري رحمه الله ومدرسته من بعده بدقة المنهج، فمنهج الأشعرية قائم على الموضوعية الصارمة، وعلى اعتماد جميع الأدلة، فهم ينظرون إلى القرآن الكريم كأنه آية واحدة، وإلى السنة كذلك،دون أن تحكمهم الانتقائية، بينما الفرق الأخرى كل فرقة تركّز على جانب من الآيات الموافقة للهوى، وتدع ما خالف الهوى، وانطلاقاً من هذا قام الأشعرية بالتوفيق بين الأدلة القرآنية وإيضاح ما قد يتوهمه الجاهل تعارضاً بينها، أو بينها وبين العقل، وهذه علامة مميزة نجدها عند جميع أتباع الإمام الأشعري،كسيف السنة الباقلاني وإمام الحرمين الجويني وحجة الإسلام الغزالي وأبي بكر بن العربي وفخر الدين الرازي وغيرهم، بل كانوا متيقظين إلى أن دعوى التناقض المزعوم بين آيات القرآن لا تسلم حتى تكون لذات النص القرآني وليس لمذهب المفسر.

وها نحن نذكر مثالاً مما ذكره الإمام سيف السنة القاضي

(١) ذكرنا أبرز الأمثلة التي حصل فيها خلاف في الساحة الفكرية الإسلامية، والأمثلة كثيرة جدا كمسألة الرؤية لله ﷻ يوم القيامة، وسائر صفات الله ﷻ وكذلك مسألة القدر، وغيرها وكتب العقيدة والتفسير طافحة بالأمثلة وقد ساق الحافظ ابن عساكر رحمه الله أمثلة كثيرة فليرجع إليه من طلب الاستزادة في تبيين كذب المفتري ص١٤٩وما بعدها.

الباقلاني ﷺ وهو من أبرز رجال مدرسة الإمام الأشعري حتى كان يسمى: الأشعري الثاني، حيث يقرر أن التناقض الموهوم لا ينبغي أن يكون بالنسبة إلى مذهب المفسر،إنما لا بد حتى يقبل الحكم بالتناقض أن يكون مخالفاً لذات النص القرآني من جميع الوجوه، فلو صح فك الجهة على مذهب أحد من أهل القبلة وجب المصير إليه؛ إذ القرآن حاكم وليس محكوماً بأقوال الرجال ومذاهبهم، وقد نبه إلى هذه القاعدة الجليلة بقوله: (فأما الملحدون فلا ينبغي أن يقبل من مطاعنهم واعتراضاتهم ما يصيرون به إلى قول بعض المتكلمين من المسلمين؛ لأنه إذا صاروا إلى ذلك تركوا الإلحاد والطعن على النبوة والقرآن، وإنما يجب أن تكون مسائلهم واعتراضاتهم أموراً تبطل دين المسلمين جملة وتقدح في سائر مذاهبهم... فإذا صاروا إلى نصرة بعض مذاهب المصلين إلى القبلة فقد عجزوا عما ضمنوه و[أظهر] [1] بغضهم تخلفهم، وكذلك فمتى سألوا عن آية وشيء من القرآن متوهمين فساده وتناقضه فيخرج، ويصح جوابه على مذاهب بعض الأمة، فقد زالت العهدة ووضح الحق، وبطلت الشبهة) [2].

(١) في الأصل : "ظهر" ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٢) الانتصار للقرآن، ٢/ ٦٨٨.

فالخلاف في الصف الإسلامي بين أهل القبلة المؤمنين بالقرآن يتلاشى ويزول أمام العدو الخارجي الذي يكفر بالقرآن، بهذه النظرة الشمولية الدقيقة الواعية تعامل الأشعرية مع كتاب الله تعالى، وهذا من أسباب جاذبية هذا المذهب حيث اتبعه معظم الأئمة المتبوعين.

وقد تولى أئمة الأشعرية رضوان الله عليهم التوفيق بين المعقول والمنقول باعتماد كل من العقل والنقل؛ ومن ذلك كتب حجة الإسلام الغزالي كـ ((إلجام العوام)) و((قانون التأويل)) و((فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة)) وغيرها،وفخر الدين الرازي في ((تفسيره الكبير)) وكتابه الماتع ((أساس التقديس)) وغيره.



موقف الإمام الأشعري

ومدرسته من بدعة التكفير

هناك نصوص عديدة من القرآن والسنة تحذر من أصناف من كبائر الذنوب قد يفهم من ظاهرها من ليس له قدم راسخة في العلم التكفير؛ فيقع في تكفير أصحاب الكبائر كتاركي الصلاة ومرتكبي الزنا وقاتلي الأنفس والحاكمين بغير ما أنزل الله دونما استحلال لذلك؛ فيحمل تلك النصوص على ظاهرها فيقع في أخطر البدع التي ظهرت في الأمة الإسلامية ألا وهي تكفير المسلمين، وإنما الحق الذي عليه مدرسة الأشعرية أن نفهم النصوص على هدي غيرها من النصوص ولا نختار النص الذي يكفّر ونترك النص الآخر الذي يجعل الأمر تحت مشيئة الله إن شاء عذب وإن شاء عفا [1].

(١) لا شك أن هذه المذكورة من أعظم الكبائر والجرائم ولكنها ليست كفراً إلا لمن استحل ذلك، أما من ارتكب ذلك وهو مقر بالخطأ والذنب فهو فاسق مجرم وليس كافراً؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(النساء١١٦)

وقد حذر رسول الله ﷺ أمته من بدعة التكفير أشد التحذير؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ :أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال وإلا رجعت عليه[١].

وقد حذر رسول الله ﷺ المسلمين من هذا الصنف من الناس الذين يكفرون المسلمين، ووصفهم رسول الله ﷺ بكثرة العبادة والصلاة، ولكنهم لتكفيرهم المسلمين لا ينفعهم ذلك شيئاً، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج في هذه الأمة ولم يقل منها قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم فيقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية[٢].

وكلامهم حسن، وهم شباب أسنانهم صغيرة في الغالب، يحدثون الناس بكلام الرسول الله ﷺ، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيخرج في آخر

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ١/ ٧٩، وكما أخرج نحوه الإمام البخاري عن أبي هريرة ٥/ ٢٢٦٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٢/ ٧٤٣.

الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم إلى يوم القيامة[١].

وانطلاقاً من هذه الأحاديث بنى الإمام الأشعري ومدرسته معتقدهم بالتحذير من المجازفة في تكفير المسلمين والتحذير من خطر ذلك على الدين، يقول الإمام الأشعري ﷺ: (ونرى أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه،كالزنا والسرقة، وشرب الخمر كما دانت بذلك الخوارج، وزعموا أنهم بذلك كافرون، ونقول: إن من عمل كبيرة من الكبائر وما أشبهها مستحلاً لها كان كافراً إذا كان غير معتقد تحريمها).

قال صاحب جوهرة التوحيد ﷺ مبيناً معتقد أهل السنة الأشعرية في ذلك:

ومن يمت ولم يتب من ذنبه
فأمره مفوض لربه

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٢/٧٤٦.

هذا معتقدنا بالنسبة لمرتكب الكبيرة رداً على الخوارج الذين يكفرون مرتكبها، أما بالنسبة لمن خالفنا من أهل القبلة في المسائل المختلف فيها بيننا وبينهم فلا نكفر أحداً منهم، وإن اعتقدنا بطلان مذاهبهم وفسادها.

قال أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي: لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري رحمه الله في داره ببغداد دعاني فأتيته فقال: اشهد علي أني لا أكفر أحداً من أهل هذه القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات.

وهذا من الخطوط العريضة لمدرسة الأشعرية، حيث لم يكفروا أحداً من مخالفيهم من أهل القبلة كالمعتزلة والشيعة والخوارج وغيرهم؛ ذلك لأن هؤلاء من المتأولين حيث اعتمدوا على شبهات من الكتاب الكريم والسنة، والإيمان أصل أصيل في الإسلام فكما دخله الإنسان بيقين لا يخرج منه إلا بيقين؛ فلا يخرج منه بالشبه، فالطريق بيننا وبينهم هو المناظرة والجدل العلمي حتى نصل إلى الحق، إلا من رفع السلاح في وجهنا كما فعل الخوارج؛ فإنهم يُقاتَلون درءاً لفتنتهم ودفاعاً عن الإسلام وعن النفس، ومع ذلك ندعوهم إلى الجدل العلمي قبل القتال كما فعل معهم سيدنا علي

ﷺ حين أرسل لهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ليناظرهم ويردهم عن غيهم، فإن لم يجد معهم التفاهم والجدل وأبوا إلا القتال فآخر العلاج الكي[1].

❁ ❁ ❁

(١) ما ذكرناه هنا هو رأي جماهير الأشعرية والذي عليه العمل، وقد وجد في أقوال بعض أئمة الأشعرية تكفير أقوال بعض الفرق الضالة ولاسيما المجسمة؛ لأن عقيدتهم في الله أشبه بعقائد الوثنية، وبعض المعتزلة في نفيهم للقدر وإنكارهم خلق الله لأفعال العباد، ولكن هذا التكفير للمسائل وليس للأشخاص، والذي يجب التنبيه إليه اليوم أن التكفير للأشخاص المعينين لا يجوز، ثم إن التكفير حكم قضائي يعود للمحاكمة كما هو معروف في باب الردة من كتب الفقه، أما العالم والمفتي فيكفر المسألة ويقول هذا الكلام كفر، أما قائله فلعل له ما يبرئ ساحته من غلط أو وهم أو ما يعتري الأهلية من عوارض أو غير ذلك، ولذلك قرر بعض الفقهاء استتابة المرتد، أما المجازفة في التكفير والتهاون بإطلاقه على المسلمين فهو ليس من شأن أهل الحق، بل هو شأن الخوارج المارقين عن قواعد الإسلام، وأخطر أنواع التكفير ما كان بسبب المسائل الفقهية كالتوسل والاستغاثة ونحو ذلك، وأشد خطر هؤلاء حينما يأتون إلى آيات نزلت في الكافرين فيحملونها على المسلمين جاء في البخاري عن الخوارج: كان ابن عمر يراهم شرار خلق الله وقال إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين.

مذهب الأشعري

في المتشابهات

هناك نصوص من كتاب الله تعالى لا نفقه معناها وظاهرها يثبت لله تعالى شيئاً من صفات المخلوقات وهو غير مراد قطعاً فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى ـ ١١) فهناك فارق بين المخلوق والخالق، وكل ما بدا لك فالله خلاف ذلك؛ فمخالفة الله تعالى للحوادث صفة قطعية متفق عليها بين المسلمين، فينبغي أن تكون مرجعاً عند النزاع في نص مختلف فيه بينهم.

ومن هذه النصوص قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه ـ ٥] ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة ـ ٦٤] ونحوها، فهذه النصوص يمتنع حملها على الحقيقة التي تتبادر إلى الذهن.

وللإمام الأشعري رحمه الله تعالى ومدرسته في هذه الآيات المتشابهة مذهبان؛ أحدهما: أنه إذا مرت به آية ظاهرها يفهم منها الجسمية كاليد والجنب ردها بالتأويل إلى ما ينفي الجسمية، والبحث عن معاني هذه الكلمات في لغة العرب واختيار أليقها بالله تعالى، والثاني: أنه يمر بظاهرها كما جاءت لا يتأولها ويكل العلم بها إلى الله تعالى من غير اعتقاد الجسمية، مع الاعتقاد الجازم أن ظواهرها المحسوسة غير مرادة قطعاً، فيقول المفسر: الله أعلم بمراده، ويكفي الإنسان ليَسلَم أن يقول: آمنت بجميع ما جاء عن الله وعن رسول الله ﷺ وعلى مراد الله تعالى.

والحق أن كلا المذهبين واحد ألا وهو تنزيه الباري ﷻ؛ فإذا كان الخوض في معانيها يؤدي إلى فتنة توقفنا عن تأويلها وتفسيرها كما فعل جمهور السلف، وإذا كان السكوت عنها يؤدي إلى فتنة واستغلت للطعن بالإسلام فسرناها اعتماداً على قواطع الدين وفصيح لسان العرب، كما ذهب إلى ذلك بعض السلف وجمهور الخلف[1]

---

(١) من الأخطاء الشائعة لدى كثير من الناس أن السلف أحجموا تماماً عن التأويل وأن التأويل مذهب الخلف وهذا خطأ مكشوف لكل من قرأ الروايات الواردة عن السلف في هذا الباب، وراجع إن شئت كتاب: (الأسماء والصفات) للبيهقي وكتاب(التوحيد من صحيح البخاري في فتح الباري) لابن حجر لتعلم أن هناك من السلف من أوّل، فالعبارة الصحيحة التي يجب أن تقال: إن السلف لم يتوسعوا في التأويل.

وبهذا يكون القصد من كلا المذهبين تنزيه الباري ﷻ واقتلاع جذور الفتنة .[١]

وقد عرفت هذه النصوص بالنصوص الموهمة للتشبيه، وقد لخّص مذهبي الأشعري اللذين يؤولان إلى واحد صاحب الجوهرة بقوله :

وكـل نـص أوهـم الـتـشـبـيـهـا
أولـه أو فـوض ورم تـنـزيـهـا

وقد كان بعض الفضلاء من أهل العلم يقول: لو قال فوّضه أو أوّل لكان أولى[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) لمزيد من الاستيضاح والتفصيل في هذه القضية ولبيان قانون التأويل وحقيقة الخلاف بين السلف والخلف راجع قانون التأويل في كتابنا: معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني.

(٢) ذلك لأن التفويض هو الأصل، وعلى كل فلا خلاف بين التأويل والتفويض؛ لأن التفويض تأويل إجمالي حيث يقطع المفوض أن الظاهر المتبادر من اللفظ غير مراد لكنه لا يخوض في تفصيل المعنى المراد.

الأشعري المجدد

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها [1].

فالله ﷻ قد ارتضى هذا الدين وأكمله وأتمه، فهو دين الله الحق للعالمين كافة، وجعل فيه قوة دفع داخلية، ولما كانت الرسالات السماوية ختمت بسيد المرسلين محمد ﷺ شاءت الحكمة الإلهية أن يبعث الله كل مئة عام مجدداً لهذا الدين ينفي عنه الغبار ويعيده ناصعاً نقياً كما رضيه ربنا ﷻ.

وقد كان أهل العلم يتوسمون في أبي الحسن الأشعري ﷺ أنه مجدد المائة التي عاش فيها؛ فلا نعلم أحداً نصر الملة وانتصر لها بما

(١) أخرجه الإمام أبو داود، ٤/ ١٠٩.

كتب وجادل وناظر وارتضاه جمهور الأمة مثل الإمام الأشعري ﷺ.[١]

وقد لاحظنا معالم التجديد في مدرسة الإمام الأشعري فهو يعرض القديم المتفق عليه في صورة عصرية وينفض عنه الغبار ويبرزه في ثوب جديد يتلاءم مع متطلبات العصر، مبيناً صلاحية القرآن والسنة لكل زمان ومكان دون المساس بجوهرهما؛ و إلا تحول التجديد إلى تبديد، والأشعري يستخدم سلاحاً جديداً قديماً في نصرة القرآن والسنة ألا وهو سلاح العقل، كما يحرر محل النزاع بين الأطراف الإسلامية المتنازعة؛ليردها إلى منهج الوسطية المتفق مع الشرع والعقل دونما تطرف أو تنطع.

❁ ❁ ❁

(١) ذهب كثير من المتوسمين إلى أن المجدد هو من مات على رأس المئة وهذا لا دليل عليه من هذا الحديث؛ بل العبرة بتجديده ودفاعه وليس بزمان وفاته، ونحن نعلم أن رأس المئة الثالثة كان عصر ازدهار الإمام الأشعري (ففيه معظم تآليفه ومناظراته، وفيه كان تحوله إلى مذهب أهل الحق والله أعلم).

المذهب الفقهي

للإمام أبي الحسن الأشعري ﷺ

كان الأشعري ﷺ من أئمة السلف الصالح ولكونه من الأئمة العظام أهل السنة والجماعة تنازع فيه أصحاب المذاهب الفقهية يتشرفون به، ومثل الأشعري يُتشرف به!فقد ترجم له الحنفية في كتبهم على أنه كان حنفياً،وكذلك نسبه المالكية والشافعية إليهم، ومثلهم الحنابلة.

وقد رجّح العلامة الكوثري ﷺ أنه نشأ حنفياً كما ذكره الإمام مسعود بن شيبة في كتاب التعليم، وعول عليه الحافظ عبد القادر القرشي والمقريزي وجماعة، ولم يثبت منه الرجوع عن المذهب حين رجع عن الاعتزال.

وقرر الإمام الكوثري رحمه الله أن سبب تجاذب أهل المذاهب له: أنه كان ينظر في فقه المذاهب، ولا يتحزب لبعضها على بعض؛ بل ينسب إليه القول بتصويب المجتهدين في الفروع، وهذا مما سهل له جمع كلمة أهل السنة حول دعوته الحقة [١].

أما أصحابه وأتباع طريقته من أهل المذاهب الفقهية فكافة المالكية [٢]؛ لأن مذهب إمام أهل المدينة ينفي خبث أهل البدع كما قال العلماء، وثلاثة أرباع الشافعية، وثلث الحنفية، وفضلاء الحنابلة . [٣]

أما باقي الحنفية من أهل السنة، فعلى طريقة الإمام الجليل أبي منصور الماتريدي إمام أهل السنة في بلاد ما وراء النهر رحمه الله، وهي شبيهة بطريقة الأشعري إلا فروقاً يسيرة كما أسلفنا، وهو والأشعري إماما أهل السنة رضي الله عنهما.

---

(١) تعليق العلامة الكوثري على تبيين كذب المفتري ص٩٨.

(٢) سوى شذوذ يسير جداً لا يكاد يذكر كبعض الأقوال العجيبة المستنكرة عن ابن خويزمنداد ونحوه.

(٣) راجع: السابق ص٢٤.

وأما باقي الحنفية فمن المعتزلة وكذلك باقي الشافعية [١]، وأما باقي الحنابلة فمن المجسمة الحشوية .[٢]

۞ ۞ ۞

(١) كما وجد شذوذ في بعض أتباع الإمامين أبي حنيفة والشافعي ينتسبون إلى مذهب المجسمة، وذلك نزر يسير لا يكاد يذكر.

(٢) إن عقيدة الإمام أحمد والتي عليها فضلاء الحنابلة أبرزها وأوضحها وجلاّها الإمام أبو الفرج بن الجوزي ﷺ في كتابه الماتع: (دفع شبهة التشبيه بأكف أهل التنزيه)؛ ولا فرق بين هذه العقيدة وعقيدة الإمام الأشعري، فكلاهما تصدر من مشكاة واحدة، وقد تولى الحافظ ابن الجوزي ﷺ في هذا الكتاب تبرئة الإمام أحمد من عقائد التجسيم التي تورط فيها بعض من يزعم الانتساب إليه.

سعة علمه

كان الإمام الأشعري رضي الله عنه واسع العلم غزير المعرفة ويشهد له كثرة تآليفه في شتى أنواع العلوم الإسلامية، واتباع جماهير الأمة الإسلامية لطريقته بما فيها من علماء وصالحين وأتقياء وأولياء، وهؤلاء لا يجتمعون على ضلالة؛ لأنهم نخبة هذه الأمة المعصومة.

وقد كان الأستاذ أبو اسحق الإسفراييني الفقيه الشافعي المشهور رحمه الله يقول: كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في البحر، وكان الشيخ أبو الحسن الباهلي هذا يقول: كنت أنا في جنب الشيخ الأشعري كقطرة في جنب البحر.

وقد قيل للقاضي لسان الأمة أبي بكر بن الطيب: كلامك أفضل وأبين من كلام أبي الحسن الأشعري رحمه الله، فقال: والله إن أفضل أحوالي أن أفهم كلام أبي الحسن رحمه الله.

زهده في الدنيا

وعبادته لله وتقواه

كان الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه إماماً عظيماً من أئمة السلف الصالح عاش معظم عمره في القرن الثالث، وهو من القرون التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية، وبنهايتها انتهى عصر السلف الصالح، وكان علماء السلف ـ والأشعري واحد منهم، بل إمام عظيم من أئمتهم ـ يتعلمون العلم لله تعالى وللعمل بمرضاته ﷻ لا لدنيا ولا لسمعة ولا لجاه، فهم الذين يخشون الله حق خشيته والذين قال فيهم ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر٢٨)

فقد كان إمامنا رضي الله عنه متقللاً من هذه الدنيا، يعيش فيها عيشة الكفاف مكتفياً بما يسد رمقه؛ فقد كان رحمه الله يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه على عقبه، وكانت نفقته في كل سنة سبعة عشر درهماً!

انظر هذا المبلغ قد ينفقه متوسط الغنى في ذلك الزمان في أيام!

أما عبادته لله رب العالمين فقد كان كثير القيام للّيل، بقي رضي الله عنه قريباً من عشرين سنة يصلي صلاة الصبح بوضوء العشاء، وكان يخفي عبادته عن الناس خشية الرياء ولا يحكي عن اجتهاده فيها شيئاً إلى أحد.

كما كان ورعاً تقياً شديد الحياء، شديد الغض لطرفه عن محارم الله تعالى، نشيطاً في أمور الآخرة مقبلاً على ربه ﷻ، قال أبو عمران موسى بن أحمد بن علي الفقيه سمعت أبي يقول: خدمت الإمام أبا الحسن بالبصرة سنين وعاشرته ببغداد إلى أن توفي رحمه الله فلم أجد أورع منه ولا أغض طرفاً ولم أر شيخاً أكثر حياء منه في أمور الدنيا ولا أنشط منه في أمور الآخرة.

❁ ❁ ❁

ثناء العلماء عليه

قال الإمام الحافظ المحدث المؤرخ ابن عساكر الدمشقي رحمه الله بعد أن ذكر جهود العلماء في القضاء على أهل الأهواء والبدع: (..كان الأشعري رحمة الله عليه ورضوانه أشدهم بذلك اهتماماً، وألدّهم لمن حاول الإلحاد في أسماء الله وصفاته خصاماً، وأمدّهم سناناً لمن عاند السنة، وأحدّهم حساماً وأمضاهم جناناً عند وقوع المحنة،وأصعبهم مراماً،ألزم الحجة لمن خالف السنة والمحجة إلزاماً، فلم يسرف في التعطيل ولم يغل في التشبيه وابتغى بين ذلك قواماً، وألهمه الله نصرة السنة بحجج العقول حتى انتظم شمل أهلها به انتظاماً...ومحله عند فقهاء الأمصار في جميع الأقطار مشهور، وهو بالتبريز على من عاصره من أهل صناعته في العلم مذكور، موصوف بالدين والرجاحة والنبل، ومعروف بشرف الأبوة والأصل...).

وقال الإمام الجليل العارف بالله أبو القاسم القشيري ﷺ: (اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ﷺكان إماماً من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة، ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة، والخارجين من الملة سيفاً مسلولاً، ومن طعن فيه أو قدح أو لعنه أو سبه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة..).

وقد وصفه الشيخ الإمام ركن الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني بأنه فاضح القدرية وعامة المبتدعة وكاشف عوراتهم.

إضافة إلى الأقوال التي ذكرناها في ما سبق في بيان أن عقيدته هي عقيدة أهل السنة، وسائر ما جاء في ثنايا الكتاب من نقول عن الأئمة في تزكيته وبيان علو شأنه رضي الله عنه.

❀ ❀ ❀

مصنفاته

كان الإمام الأشعري ﷺ ذا همة لا تنضب، ولاسيما في التصنيف لنصرة أهل الحق، وله كتب كثيرة جداً مختلفة المواضيع يجمعها نصرة مذهب أهل الحق الذي سار عليه أصحابه، ويصعب علينا في هذه الرسالة الموجزة أن نستوعب كل ما كتب الإمام الأشعري، فقد زادت كتبه على مائتي كتاب، وسنورد بعضاً مما ذكره الحافظ ابن عساكر رحمه الله من تلك الكتب على سبيل المثال لا الحصر، فمنها:

١ـ كتاب (تفسير القرآن والرد على من خالف البيان من أهل الإفك والبهتان)، وسنذكر شيئاً عن هذا الكتاب فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

٢ـ صنف كتاباً سماه: (الفصول في الرد على الملحدين والخارجين عن الملة) كالفلاسفة والدهريين، وأهل التشبيه،والقائلين بقدم الدهر على اختلاف مقالاتهم وأنواع مذاهبهم، ثم رد فيه على

البراهمة واليهود والنصارى والمجوس.

٣ـ كتاب (الموجز)، وذلك يشتمل على اثني عشر كتاباً على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين فيها.

٤ـ (كتاب في خلق الأعمال) نقض فيه شبهات المعتزلة والقدرية في خلق الأعمال ورد عليها.

٥ ـ (مقالات المسلمين) يستوعب جميع اختلافاتهم ومقالاتهم، ولعله الكتاب المعروف بـ ((مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)).

٦ـ (كتاب كبير في صفات الله ﷻ) يبين مذهبه في الأسماء والصفات.

٧ـ (كتاب في جواز رؤية الله بالأبصار) يستدل فيه لمذهب أهل السنة والجماعة القائلين بجوازها يوم القيامة ويرد على المعتزلة القائلين بنفيها وإنكارها.

٨ـ كتاب في (الرد على المجسمة والحشوية) الذين يثبتون لله تعالى صفات الأجسام من الحركة والانتقال والجلوس تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

٩ـ (اختلاف الناس في الأسماء والأحكام والخاص والعام)، والذي يظهر من عنوان الكتاب أن موضوعه أصول الفقه وقواعد تفسير النصوص.

١٠ـ كتاب سماه: (إيضاح البرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان).

١١ـ كتاب (اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)، وله كتابان آخران بعنوان اللمع: أحدهما (اللمع الكبير) جعله مدخلاً إلى كتابه (إيضاح البرهان)، والآخر هو (اللمع الصغير) جعله مدخلاً إلى اللمع الكبير.

١٢ـ كتاب (جمل المقالات)، وموضوعه جملة مقالات الملحدين والضالين.

١٣ـ كتاب (الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل) جعله للمبتدئين.

١٤ـ كتاب في (الاجتهاد في الأحكام).

١٥ ـ كتاب كبير في الصفات وهو أكبر كتبه سماه: (كتاب الجوابات في الصفات عن مسائل أهل الزيغ والشبهات)، قال الأشعري رحمه الله عن هذا الكتاب: (نقضنا فيه كتاباً كنا ألفناه قديماً على

تصحيح مذهب المعتزلة،لم يؤلف لهم كتاب مثله،ثم أبان الله سبحانه لنا الحق فرجعنا عنه فنقضناه وأوضحنا بطلانه).

١٦ـ كتاب الإبانة عن أصول الديانة،وستتحدث عن هذا الكتاب بعد قليل.

ذكرنا شيئاً يسيراً من كتب الإمام الأشعري، ومعظم هذه الكتب غير موجود بأيدينا، كما فقد منها الكثير منذ زمن طويل، والذي بين أيدينا قلة قليلة منها،كـ ((كتاب اللمع)) و((مقالات الإسلاميين)) و((الإبانة))،ومعظم علوم الإمام الأشعري وصلت إلينا عن طريق الصدور لا السطور، فطريقته العلمية تلقاها العلماء منه مباشرة ونشرها أصحابه في الآفاق، وسنفرد الحديث عن كتابين منها: أحدهما مفقود، والثاني: دخله التحريف والتزوير منذ زمن طويل.

أولاً ـ تفسير الإمام الأشعري:

وقد سماه: ((تفسير القرآن والرد على من خالف البيان من أهل الإفك والبهتان)).

ويظهر من اسمه أن موضوعه التفسير الصحيح للقرآن الكريم ورد الشبهات التي تعلق بها أصحاب الأهواء والبدع في تفسير القرآن.

وقد نقل الحافظ ابن عساكر رحمه الله مقدمة هذا الكتاب وفيها: (الحمد لله الحميد المجيد المبدئ المعيد الفعال لما يريد، الذي افتتح بحمده كتابه، وأوضح فيه برهانه وبين فيه حلاله وحرامه، وفرق بين الحق والباطل، والعالم والجاهل، وأنزله محكماً ومتشابهاً، وناسخاً ومنسوخاً، ومكياً ومدنياً، وخاصاً وعاماً، ومثلاً مضروباً أخبر فيه عن أخبار الأولين وأقاصيص المتقدمين، ورغب فيه في الطاعات ورهب فيه وزجر عن الزلات والتبعات وخطوات الشيطان والضلالات، ووعد فيه بالثواب لمن عمل بطاعته ليوم المآب، وتوعد فيه من كفر به وجانب الصواب، ولم يعمل بالطاعة ليوم الحشر والحساب، جعله موعظة للمؤمنين وعبرة للغابرين، وحجة على العالمين لئلا يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

جمع فيه علم الأولين والآخرين وأكمل فيه الفرائض والدين، فهو صراط الله المستبين، وحبله المتين من تمسك به نجا، ومن جانبه ضل وغوى وفي الجهل تردى، وجعله قرآناً عربياً غير ذي عوج بلسان العرب الأميين الذين لم يأتهم رسول قبله من عند رب العالمين، بكتاب يتلوه بلسانهم من عند فاطر السموات و الأرضين، وقطع به عذر المخالفين لنبوة سيد المرسلين؛ إذ جعله معجزاً يعجزون عن الإتيان بمثله وهم أرباب اللسان والنهاية في البيان، بين

لهم فيه ما يأتون وما يتقون وما يحلون وما يحرمون، وأوضح لهم فيه سبل الرشاد والهدى والسداد وما صنعه بالأولين الذين كانوا لديه مخالفين وعنه منحرفين وما ينزله من النقمات بالكافرين إن أقاموا على الكفر وكانوا به متمسكين؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

أما بعد، فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على آرائهم وفسروه على أهوائهم تفسيراً لم ينزل الله به سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً، ولا رووه عن رسول رب العالمين ولا عن أهل بيته الطيبين، ولا عن السلف المتقدمين من أصحابه والتابعين افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين، وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبي الهذيل بياع العلف ومتبعيه، وعن إبراهيم نظام الخرز ومقلديه، وعن الفوطي وناصريه، وعن المنسوب إلى قرية جبى ومنتحليه، وعن الأشج جعفر بن حرب ومجتبيه، وعن جعفر بن مبشر القصبي ومتعصبيه، وعن الإسكافي الجاهل ومعظميه، وعن الفروي المنسوب إلى مدينة بلخ وذويه؛ فإنهم قادة الضلال من المعتزلة الجهال الذين قلدوهم دينهم، وجعلوهم معولهم الذي عليه يعولون، وركنهم الذي إليه يستندون، ورأيت الجبائي ألف في تفسير القرآن كتاباً أوله على خلاف ما أنزل الله ﷻ وعلى لغة أهل قريته المعروفة بجبى وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روى في كتابه حرفاً واحداً عن أحد

من المفسرين، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه، ولولا أنه استغوى بكتابه كثيرا من أهل العوام واستزل به عن الحق كثيراً من الطغام لم يكن لتشاغلي به وجه...)[1].

ويمكن أن نتلمس من هذه المقدمة الجامعة الخيوط العريضة لمنهج الإمام الأشعري رضي الله عنه في تفسير القرآن الكريم ومنها:

١ـ لا يجوز تفسير القرآن الكريم بمجرد الرأي دون برهان قوي وحجة واضحة من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله ﷺ.

٢ـ لا بد من الاعتماد على لغة العرب الذين نزل فيهم القرآن لفهمه، ولا يجوز الاعتماد على لغة مستحدثة أو غير فصيحة.

٣ـ نجد الرد على أهل الأهواء والبدع ولاسيما المعتزلة شغله الشاغل ومحور حياته العلمية، وذلك ليميط الأذى عن طريق المسلمين الفكري.

ولولا خشية التكلف لذكرنا أشياء أخرى ولكن منهج الإمام الأشعري معروف وواضح وقد تناقله أصحابه من كبار أهل العلم، فهو مدرسة عليا في التفسير، نجد آثاره واضحة في أتباعه الذين

---

(١) تبيين كذب المفتري، ص١١١ـ١١٢.

ساروا على نهجه كابن فورك والباقلاني والجويني والغزالي والرازي وغيرهم من الأئمة الأعلام.

وهذا السفر العظيم من كتب الإمام الأشعري مفقود للأسف الشديد وقد نقل العلامة الكوثري ﷺ عن المقريزي أنه في سبعين مجلداً، وعن القاضي أبي بكر بن العربي أنه في خمسمائة مجلد، وعدد المجلدات يختلف باختلاف الخط كما هو معروف، وقد ذكر بعضهم أن الصاحب بن عباد المعتزلي سعى في إحراق النسخة الوحيدة منه في خزانة دار الخلافة بأن دفع للخازن عشرة آلاف دينار، وقد استبعد العلامة الكوثري هذه الرواية.

وعلى كل حال فعلم الأشعري ﷺ وطريقته في التفسير لم تمت؛ فقد نشره أتباعه من العلماء الثقات حتى وصل إلينا سالماً من كل زغل.

ثانيا ـ كتاب الإبانة عن أصول الديانة

وهذا من كتب الإمام التي أبرز فيها عقيدته التي استقر عليها وهي عقيدة أهل السنة والجماعة أهل الحق، ولكن هذا الكتاب لم يسلم من التحريف والتزوير؛ فقد تسلطت عليه أقلام الحشوية المجسمة منذ زمن بعيد؛ ليشوهوا سمعة هذا الإمام العظيم،

ولينصروا بذلك مذهبهم الهابط، ومعظم النسخ الموجودة في أيدينا لا تخلو من عبث وتلاعب؛ لذلك فقدنا الثقة بهذا الكتاب، وقد ذكر صاحب: (الوافي في الوفيات) في ترجمة إمام الحرمين الجويني رحمه الله أن المجسمة قد وضعوا كتاب الإبانة على لسان أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، قلت: لا شك أن الأشعري ألف أصل كتاب الإبانة كما ذكر ذلك ابن عساكر وغيره، لكن الإبانة الذي بين أيدينا غير موثوق ولا معتمد، والقطعة التي نقلها الحافظ ابن عساكر عن كتاب الإبانة هي أكبر ما يمكننا اعتماده والوثوق به بخلاف ما سواها مما هو موجود بين أيدينا الآن من النسخ المطبوعة؛ فإنها عند من عرف الأشعري وحقق كلامه تحوي تناقضات وبواطل يتنزه عنها الأشعري وهي مما ننزه عنه بلداء الطلبة فضلاً عن إمام أهل السنة.[1]

---

(١) أذكر أني قبل عدة سنوات قلت لشيخنا الجليل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حينما زارنا في مصر وكان قد أثنى على كتاب (الإبانة) في كتابه (العقيدة والفكر المعاصر) الذي هو من مقررات السنة الثالثة في كلية الشريعة في جامعة دمشق، قلت له ما معناه: إن فيه عبارات مستقبحة شنيعة، قال لي: مثل ماذا ؟! فقلت له مثل قوله :(ومن دعاء أهل الإسلام جميعاً إذا هم رغبوا إلى الله تعالى في الأمر النازل بهم يقولون جميعاً: يا ساكن السماء)وقوله :(وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله تعالى في كل مكان فلزمهم أنه في بطن مريم وفي الحشوش والأخلية وهذا خلاف الدين..)، فاستغرب الشيخ حفظه الله وقال: إن النسخة التي لديه ليس فيها مثل هذا الكلام!

لاحظ هذا الأسلوب المنحط أيصلح من أكبر أئمة العقليات في عصره؟!أم هو من مهاترات أولاد الشوارع؟!!

خاصة إذا ما علمت أنه لا توجد نسخة واحدة من مخطوطات الإبانة يمكن الجزم بها، وكل ما هو موجود إلى الآن مما طبع من هذا الكتاب قوبل على مخطوطات كثيرة السقط والخروم .(١)

والمعول أولاً وآخراً في كل مذهب ما نقله العلماء الأثبات عن إمامهم، كما هو معروف في علم مناهج البحث .(٢)

وقد استغل أهل الأهواء المجسمة ما فعله سلفهم أولئك من أهل التزوير ليشغبوا على أهل السنة والجماعة أتباع الإمام وليقولوا: إن الأشعرية قد خالفوا إمامهم وابتدعوا عقيدة مخالفة للسلف الصالح، وقد روّج لهذا الباطل بعض المتعصبين لمذهب التجسيم الفاسد في القرن الثامن الهجري، وقد تلقف هذا الباطل بعض المقلدين له من المعاصرين، وحاولوا ترويجه على البسطاء فليتنبه لذلك(٣).

---

(١) راجع: تنزيه الحق المعبود ص١٦٠.

(٢) كما وقع في يدي كتاب للشيخ وهبي سليمان غاوجي الألباني حفظه الله يبرهن على أن هناك مواطن موضوعة ويذكر نماذج منها، ولأخينا الأستاذ الشاب المحقق عبد العزيز الحاضري بعض اللمحات اللطيفة التي تؤكد هذا المعنى في كتابه الماتع: (تنزيه الحق المعبود عن الحيز والحدود) فليرجع إليه لزوماً من أراد الاستزادة في هذا الباب.

(٣) الحق أن هذا الصنف من الناس الأفضل عدم التعرض له؛ لأن معظم المروجين لهذا الفكر ليسوا من العلماء إنما يغلب عليهم جفوة الأعراب، إضافة إلى فقدان المنهجية العلمية في التفكير والبحث، مع جهل فاضح لدى أكثرهم في علوم اللغة العربية =

❊ ❊ ❊

= وقواعد الاستنباط، وإنما يقلدون تقليداً أعمى أفكار بعض من شذ عن الساحة العلمية من المنتسبين للعلم ولاسيما في القرن الثامن فتصدى له أهل العلم وردوه على أعقابه بكرة الخائب الخاسر، وقد استغل أولئك المشاغبون بعض الظروف فصاروا يروجون لأفكار الحشوية ويطعنون أهل السنة والجماعة، ولكنا آثرنا التلميح لبعض تشغيبهم حرصاً على إخواننا المبتدئين من طلاب العلم حتى لا تتلوث عقولهم بهذه اللوثة الفكرية التي يصعب انتزاعها بعد أن تتغلغل.
وأنا أنصح طلاب العلم الشريف أن لا يبدؤوا بقراءة هذه الكتب حتى يتمكنوا من أصول العلم ويعرفوا الغث من السمين، وبالنسبة لعلم العقيدة فمن أفضل ما يبدأ طالب العلم به حفظ جوهرة التوحيد وليقرأ بعد ذلك شروحها الميسرة، أو يحفظ الخريدة البهية للشيخ الدردير ﷺ فهما كتابان مباركان كتب الله لهما القبول في الأرض، فتداولهما أهل العلم شرقاً وغرباً، ثم ينتقل بعد ذلك إلى العقائد النسفية مع شروحها وحواشيها بشرط أن يقرأ على شيخ متقن ثبت معروف بالتقوى وحسن الديانة، ولا يجوز له أن يدين لله تعالى بأقوال أناس عرفوا بالشذوذ واتباع الهوى ومخالفة الإجماع وتكفير المسلمين وإن لبسوا مسوح السلف الصالح، أما كتاب العقيدة الطحاوية فالمتن كتاب عظيم مجمع عليه، ولكن شروحه التي بين أيدينا كلها من عمل المجسمة، وقد علمت من أخينا المحقق المتكلم الأستاذ سعيد فودة أن له شرحاً قيماً على كتاب العقيدة الطحاوية ولا أدري ساعة كتابة هذه السطور نشر الكتاب أم لا؟

وفاته

وقد كان رحمه الله ساعات الاحتضار وخروج الروح يذم المعتزلة وتمويهاتهم وتضليلهم للناس وصدهم عن المعاني الصحيحة لكتاب الله، وفي الوقت ذاته يُشهِد على نفسه بعض تلاميذه أنه لا يكفر أهل القبلة خوفاً من خطر التكفير، وحتى لا يتحمل وزر أحد من المسلمين وإن ضل، كما مر معنا سابقاً في قصة أبي علي زاهر بن أحمد السرخسي.

فلا غرابة أن يكون هذا من رجل أفنى عمره في الدفاع عن سنة سيدنا رسول الله ﷺ.

وبعد عمر حافل بالعلم ونشره وتعليمه للناس رحل الإمام الأشعري رضي الله عنه عن هذه الدنيا، ومات ببغداد بعد سنة عشرين وقبل سنة ثلاثين وثلاثمائة، وقيل في سنة بضع وثلاثين وثلاثمائة، وكثير من المؤرخين رجحوا أن وفاته رضي الله عنه كانت في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

وهكذا ترك مدرسة تربى عليها آلاف العلماء؛ فهي المذهب العلمي الأول، وشراح صحيح البخاري وصحيح مسلم كلهم إما على طريقته أو على طريقة شريكه في الدفاع عن أهل السنة الإمام أبي منصور الماتريدي رضي الله عنهما وعن أصحابهما(١).

وكذلك معظم المفسرين للقرآن الكريم كانوا على طريقته كالرازي وابن عطية والنسفي والقرطبي وابن جزي الكلبي وابن كثير والبيضاوي والمحلي والسيوطي وأبي السعود وغيرهم.

فضلاً عن علماء العقيدة، فجميع أهل السنة على منهجه، ومعظم علماء أصول الفقه والفقهاء كذلك، وبسبب إقبال جماهير الأمة المحمدية على طريقة الإمام الأشعري ﷺ ولاسيما العلماء الأثبات الثقات كانت المدارس العلمية والمعاهد العليا في بلاد المسلمين لا تدرس إلا طريقة الأشعري وأصحابه، فالأزهر الشريف منذ ما يقرب

---

(١) هذه من الحقائق المرّة بالنسبة لمدعي السلفية حيث لم يوجد في التاريخ الإسلامي أحد شرح الصحيحين إلا من أهل السنة، فكما أن الله تعالى حفظ بالصحيحين أصول السنة من الضياع فقد حفظهما من تعرض أحد من أهل البدع لشرحهما إلى يومنا هذا، مع الدعاوى العريضة من مدعي السلفية باتباعهم للسنة وتنطعهم في التمسك بالصحيحين، وقد أدرك مدعو السلفية في هذا العصر هذه الحقيقة الفاضحة لهم، فتجد أحدهم كلما ذكر صحيح البخاري قال: هيأ الله من يشرحه من أهل السنة! وهذا يدل على أن هذا الأخ ـ سامحه الله ـ يعتقد أن كل شراح البخاري من أهل البدعة لأنهم أشعرية! فتصور يا رعاك الله ما يفعل التعصب بأصحابه!

من ثمانمئة عام على هذه الطريقة، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب، وبلاد الشام ومدارسها كذلك، إضافة إلى كبار أهل العلم في بلاد الحجاز وكذلك بلاد الهند والسند.

فرضي الله عن الأشعري وجمعنا به تحت لواء سيد المرسلين ﷺ وجعلنا ﷻ بفضله ومنّه لحوض سيد المرسلين ﷺ من أول الواردين.



بعض ما مدح به الأشعري من الأشعار

مدح كثير من العلماء والصالحين الشيخ أبا الحسن رحمه الله في قصائد نقلها الإمام ابن عساكر الدمشقي رحمه الله، وها نحن نذكر بعضها، ومن ذلك، قول إمام الأئمة أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري رحمه الله حيث قال:

شيآن من يعذلني فيهما
فهو على التحقيق مني بري

حب أبي بكر إمام الهدى
ثم اعتقادي مذهب الأشعري



* * *

• ولبعضهم في هذا المعنى قوله:

من كان في الحشر له عدة
تنفعه في عرصة المحشر

فعدتي حب نبي الهدى
ثم اعتقادي مذهب الأشعري

وقال القاضي الإمام أبو الحسن هبة الله بن عبد الله السيبي:

إذا كنت في علم الأصول موافقاً
بعقدك قول الأشعري المسدد

وعاملت مولاك الكريم مخالصاً
بقول الإمام الشافعي المؤيد

وأتقنت حرف ابن العلاء مجرداً
ولم تعد في الإعراب رأي المبرد

فأنت على الحق اليقين موافق
شريعة خير المرسلين محمد

* * *

• وقال بعضهم :

أصبح الناس في عمى ... بين ساه وممتري

جعلوا دينهم هوى ... والهوى غير مبصر

وتعاموا عن الهدى ... ليس فيهم بمنكر

شبهوا الله بالورى ... وهو من جهلهم بري

حرم الرشد من غدا ... يتعامى ويفتري

فالزم الحق لا تزغ ... واعتقد عقد الأشعري

* * *

• وقال الإمام الشيخ أبو القاسم الجزري الاسكندارني :

خذ ما بدا لك أو دع ... كثرت مقالات البدع[1]

إن النبي المصطفى ... ديناً حنيفياً شرع

ورضي به لعباده ... رب تعالى فارتفع

قد كان ديناً واحداً ... حتى تفرق ما اجتمع

قوم أضلهم الهوى ... والآخرون لهم تبع

الله أيد شيخنا ... وبه البرية قد نفع

(١) في الأصل : (فدع)ولعل الصواب ما أثبتناه.

الأشـــعــري إمـــامــنـــا — شـيـخ الـديـانـة والـورع
بـسـط الـمـقـالـة بـالـهـدى — وفـظـيـع حـجـتـهـم قـطـع
حـتـى اسـتـضـيء بـنـوره — والله يـتـقـن مـا صـنـع
مـن قـال غـيـر مـقـالـه — أخـطـا الـطـريـقـة وابـتـدع
لا يـنـكـرنّ كـلامـه — إلا أخـو جـهـل لـكـع[1]
أهـل الـعـقـول تـيـقـظـوا — فـالـفـجـر في الأفـق انـصدع
نـسـبـوا إلـى رب الـعـلا — مـا قـولـه مـنـه مـنـع.
زعـمـوا بـأن كـلامـه — مـثـل الـكـلام الـمـسـتـمـع
فـبـرئـت مـنـهـم إنـهـم — ركـبـوا قـبـيـحـات الـشـنـع

❊ ❊ ❊

• ونقل الحافظ ابن عساكر عن بعض أهل عصره في وزن هذه الأبيات:

قـل لـلـمـخـالـف يـا لـكـع — كـف الـلـسـان عـن الـبـدع
وذر الـتـعـصـب جـانـبـاً — والـلـعـن لـلـعـلـمـاء دع
فـظـلام جـهـلـك فـي ال — عقيـدة قد تلاشى وانقشع
لـمـا بـدا فـجـر الـهـدى — مـمـن يـنـزه وانـصـدع

(١) في الأصل: (لا ينكرون كلامه) ولعل الصواب ما أثبتناه.

وغـــراس مـــا أســقــيـتــه ... مــاء الـخـداع قــد انـقـطـع
مــا أنــت حــلــف زهــادة ... بــل أنــت عـبـد لـلـطـمـع
كــم تـزرع الـتـشـبـيـه فـي ... سبـخ الـقـلـوب فـمـا انـزرع
فــاهــجــر دمـشـق وأهـلـهـا ... واسـكـن بـبـصـرى أو زرع
فـهـنـاك يـمـكـن أن يـصـدق ... مــا تـقـول ويـسـتـمـع
واعــلــم بــأن الأشــعــري ... عــدو أصــحــاب الـبـدع
فـهـو الـمـجـيـد الـذب عـن ... سـنـن الـرسـول ومـا شـرع
حــبــر تــقــي عــالــم ... جـمـع الـديـانـة والـورع
رفــع الإلــه مــحــلــه ... عــنــد الـبـريـة فـارتـفـع
واخـتـار مـا قـال الـرسـو ... ل مـن الأصـول ومـا اخـتـرع
لـكـنـه نـصـب الـدلـيـل ... لـمـن تـسـنـن واتـبـع
وأبــان أن الــعــقــل ... لا يـنـفـي الـصـواب الـمـتـبـع
مــن آيــة أو ســنــة ... كـان الـرسـول بـهـا صـدع
يـا حـسـن مـا أبـدى لـنـا ... وجـه الـدلـيـل ومـا انـتـزع
فـغـدا بـه شـمـل الـهـدى ... لـلـمـسـلـمـيـن قـد اجـتـمـع
وتـفـرقـت فـرق الـضـلا ... ل وذل مـذمـوم الـشـيـع

وتعطلت ممن يعطل ... بعد كثرتهم بقع
فلأي حزب منهم ... قصد الجدال فما قمع
ما أمّه ذو بدعة ... لِحِجَّاجةٍ إلا انقطع
لو لم يصنف عمره ... غير الإبانة واللمع
لكفى فكيف وقد ... تفنن في العلوم بما جمع
مجموعة تربي على الـ ... مائتين مما قد صنع
لم يأل في تصنيفها ... أخذاً بأحسن ما استمع
فهدى بها المسترشدين ... ومن تصفحها انتفع
تتلى معاني كتبه ... فوق المنابر في الجمع
ويخاف من إفحامه ... أهل الكنائس والبيع
فهو الشجا في حلق من ... ترك المحجة وابتدع
فعليه رحمة ربه ... ما غاب نجم أو طلع

* * *

● ولبعض أهل العلم في مديحه رحمه الله:

الأشعري ما له شبيه حبر إمام عالم نقيه
مذهبه التوحيد والتنزيه وما عداه النفي والتشبيه
وليس فيما قاله تمويه وصحبه كلهم نبيه
في قولهم على الهدى تنبيه ما فيهم إلا امرؤ وجيه[1]
فمن قلا أصحابه سفيه ومن رأى تضليلهم معتوه

● ولبعضهم أيضا قوله:

الأشعرية قوم قد وفقوا للسداد
وبينوا للبرايا طرًّا طريق الرشاد
ونزهوا الله عما يقول أهل العناد
وقدسوه عن المثـ ـل جلّ والأنداد
ونزهوه عن الزو ج عز والأولاد
وهم نفوا عنه ما لا يصح في الاعتقاد
وأثبتوا كل وصف يصح بالإسناد
فهم بدور الدياجي وهم هداة العباد

(١) في الأصل: (في قوله) ولعل الصواب ما أثبتناه.

وهـــم بـــحـــار عـــلـــوم وهـــم صـــدور الـــبـــلاد
وهـــم كـــرام الـــسـجـايـا وهـــم وجـــوه الـــنـــوادي
لـــم يـخـرجـوا عـن كـتـاب أو سـنـة فـي اعـتـقـاد
لـيـسـوا أولـي تـعـطـيـل ولا ذوي إلـــحـــاد

• ومما قيل فيه أيضاً:

إن اعـتـقـاد الأشـعـري مـثـل عـقـود الـجـوهـر
مـا يـنـكـر اعـتـقـاده غـيـر جـهـول مـفـتـري
كـم يـدعـي تـقـصـيـره مـن جـاهـل مـقـصـر
لـيـسـت لـه مـعـرفـة بـمـثـمـنـات الـدرر
يـريـد أن يـنـالـهـا جـهـلاً بـبـذل الـكِـسَـرِ
والـدر لا يـطـمـع فـي حـصـولـه لـمـعـسـر
فـمـن بـدا إفـلاسـه فـلـيـس مـمـن يـشـتـري
ومـن غـدا ذا ثـروة حـصـلـه بـالـبـدَر
ونـال مـنـه مـا اشـتـهـى كـذاك عـلـم الأشـعـري
مـن رام أن يـنـالـه وهـو مـن الـفـضـل عـري
مـا اكـتـحـلـت أجـفـانـه فـي درسـه بـالـسـهـر

ولا لــــقــي مــبــرزاً ... فـي حـضـر أو سـفـر
ولا سـعـى فـي جـمـعـه ... فـي أُصُـلٍ أو بُـكَـرِ
ولا اغـتـدى مـسـتـرشـدا ... فـيـه فـحـول الـنـظـر
يـنـظـر فـيـمـا ذكـروا ... بـالـسـبـر والـتـفـكُّـر
كـمـن تـمـنـى سـفـهـاً ... نـيـل الـسـهـى والـمـشـتـري
أو فـاتـح قـد فـاتـه ... مـفـتـاح قـفـل عـسـر
فـلا تـطـع فـي ذمـه ... كـل عـدو أبـتـر
واعـلـم يـقـيـنـاً أنـه ... مـمـا يـقـولـون بـري
فـهـو إمـام عـالـم ... مـا فـضـلـه بـمـنـكـر
شُـرِّف فـي عـلـومـه ... بـفـضـل طـيـب الـعـنـصـر
ذو هـمـة بـكـريـة ... عـزمـاً وعـدل عـمـري
ورأفـة نـوريـة ... حـلـمـاً وعـلـمـاً حـيـدري
مـا زاغ فـي اعـتـقـاده ... عـن آيـة أو خـبـر
أو حـجـة عـقـلـيـة ... تـصـح فـي الـمـعـتـبـر
مـوحـد فـي عـقـده ... ومـثـبـت لـلـقـدر
والـكـسـب لا يـنـكـره ... مـثـل جـحـود الـمـجـبـر

منزه لربه ... عن محدثات الصور

وعن أفول ذاته ... كالشمس أو كالقمر

وهل يكون صورة ... للخالق المصور

لأنه ليس بذي ... جسم ولا بجوهر

ولا يرى صفاته ... مثل صفات البشر

لأنه جل عن ال ... حدوث والتغير

وليس ينفي صفة ... له كنفي المنكر

بل يثبت الحياة وال ... قدرة للمقتدر

والعلم لكن لا يرى العلم ... كعلم نظري

وإنه أراد ما ... كان من المقدر

ويثبت السمع كما ... يثبت وصف البصر

ويثبت القول ولا ... يجحده كالقدري

ولا يرى المسطور ... في الألواح نقش الأسطر

ويثبت استواءه كما ... أتى في السور

يثبت النزول لا ... كهابط منحدر

من غير تشبيه كما ... يثبت أهل الأثر

ولا يعادي أحداً مِـ ن صحب خير النذر

بل يتوالى حصبه والآل خير العتر

ويعرف الفضل لهم كما أتى في السير

ولا يرى المسلم في بدعته بمكفر

فكن به مستمسكاً فإنه العقد السري

وحزبه زين الورى أكرم بهم من معشر

كم بحر علم زاخر وبدر تم مقمر

منهم ومن مقدم قد حاز كل مفخر

ونال حسن منظر حقاً وطيب مخبر

لا يمتري في فضلهم إلا حسود ممتري

هم دراري أنجم وهم لآلي أبحر

بحبهم ينجو الذي يحبهم في المحشر

فرحمة الله على أمواتهم في الحفر

وأيد الباقين في الـ ورد وحين الصدر

هذا بعض ما قيل من أشعار في مدحه وقد تركنا بعضها خشية الإطالة، فنسأل الله لإمامنا المزيد من الفضل والإنعام ونسأله تعالى أن يلهمنا حجتنا وأن يلحقنا به على صافي الإسلام.

الخاتمة

وهكذا عشنا مع إمام أهل السنة والجماعة أبي الحسن الأشعري ﵁ مع رجل عاش لله تعالى ومات ولم يمت ذكره، وما من يوم يمر إلا ويترحم الناس عليه ويطلبون من الله تعالى له الرضوان، عاش فقيراً قانعاً متعففاً مكتفياً من هذه الدنيا بيسير من القوت يسد الرمق، جاعلاً نصب عينيه رضى خالقه جل جلاله ونصرة دينه الحق الذي ارتضاه للعالمين.

جعل هدفه الأسمى توحيد كلمة المسلمين على المنهج الوسط وعلى الاعتدال ورفض التطرف تطرف المعتزلة الذي أدى بهم إلى رد كثير من نصوص السنة الصحيحة أو إلى التعسف في تأويل نصوص القرآن الكريم، كما رفض تطرف الجهة الأخرى وهي جهة المجسمة الحشوية الذين غالوا في إثبات الظواهر القرآنية حتى وصلوا إلى

التشبيه، كما تلقفوا من الأخبار كل سقيم، فوصلوا إلى عقيدة أقرب إلى الوثنية.[١]

ولما كانت الوسطية من أهم سمات الإسلام دين الله الحق ـ وهي السمة التي ساعدته على البقاء والاستمرار ـ استمر مذهب أهل السنة الأشعرية على نفس الوسطية؛ فمذهب أهل السنة بين المذاهب الإسلامية كدين الإسلام وسط الأديان، اعترف الأشعري بالعقل الذي انتصر له المعتزلة وآمن به وجعله مساعداً للنص ورديفاً له لا بديلاً عنه، كما آمن بالنص الذي زعم المجسمة والحشوية التمسك به، لكنه أعمل النص في مجاله والعقل في مجاله دون أن يجحف بحق واحد منهما حين يدخله في غير مجاله[٢]، وبذلك دان جمهور المسلمين بهذا المذهب.

---

(١) كحديث الأوعال والأطيط وإثباتهم للحق سبحانه الثقل والمماسة للعرش وأنه محدود وأن له جهة وصوتاً وصورة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ولمعرفة المزيد من فضائح هذه الفرقة الضالة راجع لزاماً كتاب مقالات العلامة الكوثري فهو خير من فنّد أباطيلهم في هذا العصر فرضي الله عنه.

(٢) لمزيد من الاستيضاح والتفصيل في مجال العقل والنقل والعلاقة بينهما: اقرأ كتاب شيخ الإسلام مصطفى صبري ﷺ: (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين)، كذلك راجع كتابنا (معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني).

حرره أفقر عباد الله وأحوجهم إلى عفوه ومغفرته عبد القادر بن محمد الحسين الحنفي مذهباً الأشعري السلفي عقيدة ومشرباً قبيل ظهر يوم الاثنين ١٣من رجب الفرد سنة ١٤٢٧ للهجرة النبوية الموافق٧ آب ٢٠٠٦م في مدينة الميادين (الرحبة)من وادي الفرات المبارك.



قائمة أهم المصادر والمراجع

١ـ تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري.

٢ـ تاريخ ابن خلدون.

٣ـ الوافي بالوفيات.

٤ ـ العبر.

٥ ـ الملل والنحل.

٦ ـ تاريخ المذاهب الإسلامية.

٧. الروضتين في أخبار النورية و الصلاحية.

٨. الانتصار للقرآن.

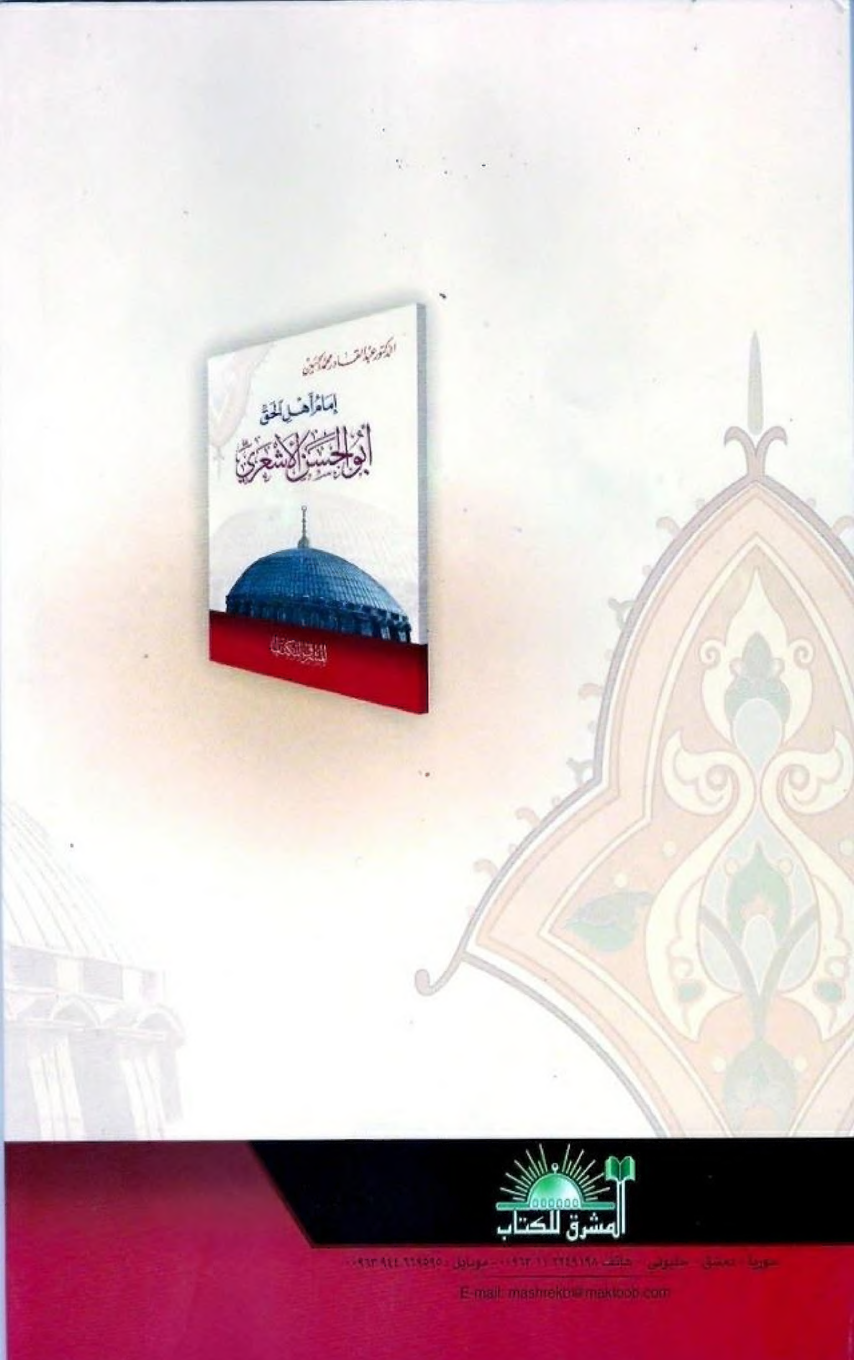
٩. معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني.





الفهرس





الدكتور عبد القادر محمد الحسين
إمام أهل الحق
أبو الحسن الأشعري
المشرق للكتاب
سوريا - دمشق - حلبوني
E-mail: mashrekb@maktoob.com